أسماء اللّه الحسنى
من خلال مدارسة أذكار الصباح والمساء

(سورة الإخلاص والمعوِّذتين)

أ. أناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزّوجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الفهرس

اللقاء الثّامن ٥
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١٤
اللّقاء التّاسع ١٧
﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ٢٢
﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ٢٥
اللّقاء العاشر ٢٨
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ٣٨
اللّقاء الحادي عشر ٤١
﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ٤٤
﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٤٩
﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ٥٠
﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ٥٣
اللّقاء الثّاني عشر ٥٤
اللّقاء الثّالث عشر ٦٩
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ٧٣
﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ٧٦

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ ٧٧
اللّقاء الرّابع عشر ٨٣
﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ٨٥
﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ٨٦
اللّقاء الخامس عشر ٩٦

اللقاء الثّامن

الأربعاء: ١٩ ربيع الآخر ١٤٤٣هـ

سورة الإخلاص

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

نحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا أن علّمنا عن نفسه أسماءه وصفاته وأن أخبرنا في هذا القرآن العظيم بالأخبار العظيمة الّتي يجب علينا أن نؤمن بها ونصدقها، فهذا هو إيماننا بالله -عزّ وجلّ- الّذي يتضمن الإيمان بكلّ خبر عن عظمة الله وعن جلال الله، بكلّ اسم سمّى الله به نفسه، وبكل وصفٍ وصف الله به نفسه في هذا الكتاب العظيم.

نحن أمام نعمة عظيمة: نعمة القرآن الّذي نزل فيه الخبر عن الرّحمن الّذي أمرنا بالإيمان به، وهذا الإيمان مطمئن للوجدان، مطمئن للقلوب، مثبت لها في معركة الحياة، هذه المعركة الّتي نخوضها في كلّ وقت ونتعرض فيها في كلّ وقت لأمور وشؤون فيها من الخوف وفيها من الحاجة ما الله بها عليم! فهذا الإيمان الّذي يكون في الوجدان ويتجدد في كلّ حين بقراءة القرآن هو سبب للثبات على الصّراط، فإذا أحسن الإنسان قراءة القرآن ومعرفة الرّحمن وازداد إيمانًا بقراءة القرآن وبمعرفته -عزّ وجلّ- أصبح مطمئنًا بذكره ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

﴿الْقُلُوبُ﴾[١] فكلّما زدنا تعلمًا عن الله؛ أسمائه وصفاته وأفعاله من خلال قراءتنا للقرآن، وزدنا بذلك إيمانًا، وزدنا بذلك طمأنينة، وزدنا بذلك استقامة على الصّراط المستقيم الموصل لربّ العالمين، كلّما زاد نجاحنا في الاختبار الّذي خلقنا له، والّذي قال فيه ربّ العالمين مبيّنًا أنّ هذا هو السّبب الّذي خلقنا له: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[٢]

تصوروا هذا الأمر العظيم، تصوروا هذه الوظيفة الخطيرة للإنسان الّتي من أجلها خلقت السّماوات والأرض، وأنزل الرّحمن القرآن، وأنزل من السّماء إلى الأرض أوامره القدرية وأوامره الشّرعية: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهذا هو الأمر المهم الّذي يجب علينا أن نتذاكره في أذكارنا، في أذكار الصّباح وفي أذكار المساء، وفي كلّ ذكر نذكر به الله، بل مجالس الذّكر تعقد لتذكّرنا بهذه الحقائق. فإنّ هذه الحقائق الّتي نؤمن بها نحتاج دائمًا أن نتذاكرها ونذكرها ليحصل لنا بذلك الخيرات، ولتحصل لنا البركات، فينتفع الإنسان من عمره أيّما انتفاع. سبحان ربّنا العظيم؛ ما أرحمه بعباده! يسّر لهم الطّريق فخلقهم على فطرة سوية، وجعل لهم الآيات الكونية، وأرسل الرّسل، وأنزل الكتب، وأجرى عليهم من الأقدار ما به يحصل لهم زيادة الإيمان. فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا.

وقد كنا بفضل الله جلسنا مجالس سابقة نتذاكر فيها أذكار الصّباح والمساء وما فيها من أسماء الله وصفات الله وأفعال الله والأخبار عن الله،

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) الطلاق: ١٢.

وكنا فيما مضى بدأنا بآية الكرسيّ، وهي أعظم آية في كتاب الله، فتفضّل الله -عزّ وجلّ- علينا وتدارسناها في المجالس السّابقة.

ونبدأ بإذن الله اليوم بالكلام عن سورة الإخلاص، ويتبعها بعد ذلك إن شاء الله الكلام عن المعوّذتين، وهي من أكثر الأذكار الّتي تكرّر. فآية الكرسيّ -كما مر معنا- تكرّر في أذكار الصّباح وأذكار المساء، وعند كلّ صلاة، وعند النّوم، فهي آية عظيمة والواجب دائمًا أن نتذكّر معانيها. واليوم نبدأ بسورة الإخلاص الّتي هي من أذكار الصّباح والمساء، ومن أذكار بعد الصّلاة، ومن أذكار النّوم، وبها نتذكّر حقائق عظيمة.

فهذه الكلمات العظيمة الّتي نتلوها ونقرؤها بألسنتنا إنما يراد بها أن نذكر الله، أن نتذكّر ما لله من عظمة، وأن نتقرب إليه -سبحانه وتعالى- بهذا التّذكّر، وأن يكون منا التّفكر. فنبدأ أوّل ما نبدأ بالكلام عن فضل هذه السورة العظيمة سورة الإخلاص.

❀وقد ورد في فضل هذه السّورة نصوص ثابتة عن الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، من أهمها أنّ هذه السّورة تعدل ثلث القرآن، ومعنى أنّها تعدل ثلث القرآن: أنّها من جهة ما تحمله من معاني فهي تلخص ثلث المعاني الموجودة في القرآن. فنفهم من ذلك أنّ سورة الإخلاص الّتي هي خبر خالص عن الله، والّتي تمثل ثلث القرآن عظمتها أتت من جهة كون أنّ هذا الثّلث هو أهم موضوع من مواضيع القرآن وتتبعها المواضيع الأخرى.

فما هو هذا الثّلث الّذي تحويه هذه السّورة؟ ومن ثمّ ما الثّلثان الّتي في بقية القرآن؟

القرآن أهم خبر فيه: الخبر عن الله، والخبر عن الله هو أصل نزول القرآن كما تبيّن، ثمّ الخبر عمّا يحبّ الرّحمن -عزّ وجلّ-، وعمّا يبغض الرّحمن -عزّ وجلّ-، الخبر عما يقربنا إليه -عزّ وجلّ-. هذا كان الثّلث الثّاني من مواضيع القرآن.

- الثّلث الأوّل: القرآن يعرفنا بالرّحمن.
- الثّلث الثّاني: ما يحبّ -عزّ وجلّ-، وما يبغض، ومن ثمّ ما يقربنا إليه.
- الثّلث الثّالث: هو الثّلث الّذي أخبرنا الله فيه عمّا يكون من نعيم عنده -سبحانه وتعالى-، بحيث يكون من الإنسان الإقبال على الله حين يعرفه -عزّ وجلّ-، ويعرف محابه، ويعرف ما هيّأ -عزّ وجلّ- للعبد إذا أطاعه وسار على ما يرضيه.

روى مسلم عن أبي الدّرداء عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ قالوا: وكيفَ يَقْرَأْ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ قالَ: قُلْ هو اللَّهُ أحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»[١] فهذا يدلّ على أنّ فضل الله واسع، فقد تفضّل الله على هذه الأمّة وعوض قصر عمرها بمزيد من الأجر على أعمال يسيرة، وللأسف مع اليسر والسّهولة الحاصلة في هذه الطّاعات إلّا أنّ الخلق أصبح عندهم نوع من التهاون والفتور والكسل، أو استبعاد أيضًا لهذا الفضل العظيم، لماذا تستبعد أن تكون قراءة سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؟! هذا فضل الله!

---

(١) أخرجه مسلم: (٨١١).

وهنا يجب أن ننبه أنّ هناك فرق بين الجزاء والإجزاء:

- فالجزاء هو الثّواب الّذي يعطيه الله تعالى على الطّاعة.
- والإجزاء هو أن يسد الشّيء عن غيره ويجزي عنه.

نقول هذا الكلام لأنّ قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] **لها جزاء قراءة ثلث القرآن، ولا خلاف على ذلك، لا أنّها تجزئ عن قراءة ثلث القرآن.** لو جاء أحد مثلًا وصلّى بها واستفتح وقرأ سورة الإخلاص مرة واثنين وثلاثة ويقول: أنا قرأت القرآن كاملًا! بهذه الصّورة، نقول: لا، تقرؤها بدون الفاتحة لا تجزئك، نعم، قراءتها مرة تعادل ثلث ومرتين ثلثين وثلاثة يعطى جزاء من قرأ القرآن لكن لا يعني هذا أنّها أجزأته عن الفاتحة.

مثال آخر؛ حين يمنّ الله على أحدنا ويصلي في الحرم المكي مثلًا صلاة فريضة، صلاة الفريضة لها أجر مئة ألف صلاة -سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم- فهل يفهم أحد من هذا الفضل الرّباني أنّه لا داعي للصلاة عشرات السّنين لأنّه صلّى صلاة واحدة في الحرم تعدل مئة ألف صلاة؟! نقول: لا، هذا في الجزاء والثواب، أمّا الإجزاء فهذا شيء آخر، لا يقول لي: خمس أيام أصلي في الحرم، أضرب خمسة في خمس فروض وكلّ فرض بمئة ألف صلاة، إذًا سأبقى السّنوات الباقية لا أصلي! نعوذ بالله، هذا لا يجزئ، نعم، جزاؤه عظيم لكنه لا يجزئ.

ثم عندما تسمع خبر أنّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، هل هذا يعني أننا لسنا بحاجة لقراءة بقية القرآن؟ هذا لم يقل به أي أحد من أهل العلم!

---

(١) الإخلاص: ١.

اتفقنا أنّ القرآن فيه ثلاثة مواضيع:

- ثلث أخبار عن الله، وهذا هو الأساس.
- ثلث فيه أحكام؛ ما يحبّ الله وما يرضى.
- ثلث فيه الوعد والوعيد.

هذه السّورة لخصت ثلث مواضيع القرآن، وأصلًا لكي تفهمها جيدًا لا بد أن تقرأ القرآن كلّه. إذًا نحن لا غنى لنا أبدًا عن معرفة الله وهي الأساس، وعن معرفة ما يحبّ الله وما يبغض الله، وعن معرفة ما يعدنا به الله، لا بد أن نعرف الوعد والوعيد. هذه معًا تشكّل عقيدة المؤمن.

بهذا نفهم أنّ الإنسان إذا قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن، لكن يبقى هو محتاج لقراءة بقية القرآن، وهذا يكفي في البيان وسأضرب مثالًا هنا يوضح المقصود جدًا:

نرى مثلًا أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- اعتاد في صلواته -النّوافل خاصّة- أن يجمع بين سورة الكافرون وسورة الإخلاص، ونبدأ حديثنا عن سورة الإخلاص بهذا المعنى؛ أي بالرّبط الحاصل بين سورة الإخلاص وبين سورة الكافرون. لاحظوا أننا هنا نقول إننا لا يمكن أن نستغني عن القرآن، ولا تفهمي من أنّ سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن أنك تستغنين عن بقية القرآن! لا، هذا ليس صحيحًا ولا هذا مسلك النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، بل انظري النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كان يجمع في كثير من صلوات النّوافل بين قراءة سورة الإخلاص وسورة الكافرون، وقد كانت ولا زالت تسمّى عند أهل العلم سورتي الإخلاص. أي أنّ نبيّنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- كان يقرأ في الرّكعة الأولى مثلًا من صلاة ركعتي الطّواف، أيًّا كان، وأيضًا ركعتي الفجر، اشتهر أنّه -صلّى الله عليه

وسلّم- كان يقرأ سورة الكافرون، وفي الرّكعة الثّانية كان يقرأ سورة الإخلاص، **والجمع بينهما يدلّ على أنّ السّورتين اللتّين سميتا سورتي الإخلاص يكمل بعضها بعضًا في المعاني في عقيدة الإنسان.**

وهنا سنضع عنوانًا مهمًا مرتبًا على ما مضى من كلام: نحن بحاجة للقرآن كلّه، وأجر قراءة سورة الإخلاص يعدل أجر قراءة ثلث القرآن من جهة الجزاء، لكن هذا لا يعني الاستغناء عن بقية القرآن، بل النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم- كان يجمع مع سورة الإخلاص سورة الكافرون لتكون السّورتان معًا تمثلان عقيدة المؤمن.

ولننظر للمسألة من جهة أخرى: لنرى ابتداءً

كيف تأتي سورة الكافرون في الرّكعة الأولى وسورة الإخلاص في الرّكعة الثّانية؟!

طبعًا في ترتيب المصحف سورة الكافرون تأتي قبل الإخلاص، لكن أيضًا **ما في سورة الكافرون من معاني يفضي إلى سورة الإخلاص.**

إذا قرأ الإنسان سورة الكافرون، وهو يتلو فيذكر عقيدته، ويتذكّر ما ورد فيها من اللاءات: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فسورة الكافرون قائمة على النّفي، وبهذا يكون وجدان المؤمن مليئًا بالابتعاد عن الشّرك وأهله، خاليًا من كلّ أحد إلّا الله، وهذا المعنى الّذي تأتي سورة الإخلاص تثبته.

- إذًا سورة الكافرون قائمة على النّفي ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾.
- وسورة الإخلاص تثبت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

- في سورة الكافرون نجد الإنسان يظهر طهارة قلبه.
- وفي سورة الإخلاص نجد الإنسان يثبت توحيده لربّه.

وهذا بالضّبط يوافق معنى: (لا إله إلّا الله)؛ لأنّ معنى (لا إله إلّا الله) نفي وإثبات. ولذلك المؤمن إذا قرأ الكافرون ونفى أن يكون من الكافرين، ونفى عن الكافرين أن يكونوا من المسلمين، احتاج بعد هذا النّفي إعلان مَن هو ربّ العالمين، مَن هو الرّب الّذي نؤمن به، إذا أعلنا البراءة من الشّرك وأهله، بقي أن نعلن نحن إلى أي شيء ننسب، فتثبت أنك عبد لله.

في الكافرون نقول: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إذًا تعبد من؟

فتجيبهم فتقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

فهذا ذكر يُذكر الله به، ذكر ينشط التّوحيد في قلب المؤمن، أنت يا عبد الذّاكر، والله هو المذكور -سبحانه وتعالى-، نذكره -عزّ وجلّ- كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، نذكره بما وصف به نفسه -جلّ وعلا-.

فهذه السّورة -سورة الإخلاص- كانت ذكرًا نذكر الله -عزّ وجلّ- به ونصفه بصمديته ووحدانيته ليتقرر في قلبنا معنى عبوديته -سبحانه وتعالى- وهو الواحد القهار. فهذا يدلّ على أننا بحاجة للقرآن كلّه، ويقرر الفرق بين الجزاء والإجزاء. إذا قرأت سورة الإخلاص كان لك الجزاء بمثل قراءتك لثلث القرآن وهذا من تيسير الله، لكن لا تجزئ عن قراءته، يعني لا تقرأ سورة الإخلاص بدلًا من الفاتحة ولا تستغنِ عن بقية القرآن، فإنّ هذا الملخص الموجود في سورة الإخلاص بيانه وتفصيله إنما هو موجود في القرآن كلّه.

وهذه السّورة وإن كانت إثباتًا فإنّ سورة الكافرون نفيًا، والتّوحيد إنما هو الجمع بين النّفي والإثبات، ومن هنا سميت هاتان السّورتان (سورتي الإخلاص) وهاتان السّورتان من أعظم سور القرآن، حتّى أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وصف سورة الكافرون بأنها كانت لقارئها براءة من الشّرك لأنّه أعلن بلسانه واستقر في وجدانه القطيعة بينه وبين أهل الكفر، وأنّ هناك فرقًا كبيرًا بينه وبين أهل الكفر، ولا يمكن أن يلتقي هو وأهل الكفر -وهم باقون على كفرهم- في نقطة، ما تعبدونه يا أهل الكفر ليس هو من أعبده، ومن أعبده أنا يا أهل الكفر ليس ما تعبدونه أنتم. لما أصبح هناك حضور لهذا المعنى وخلو في القلب من أنواع الشّرك، أتت سور الإخلاص لتبيّن ما هي عقيدة المؤمن، فسورة الإخلاص تعرّفنا بالله لنعرف من نعبد.

ومن هنا تلحظين ما يتكلم به أهل العلم عن سبب نزول هذه السّورة الكريمة؛ فقد ذكر أهل العلم كما روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب «أنّ المشرِكينَ قالوا لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ: انسِب لَنا ربَّكَ، فأَنزلَ اللَّهُ تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ»[1]

«انسِب لَنا ربَّكَ» أي: بيّن لنا من هو ربّك، فأنزل الله تعالى هذه السّورة.

من هنا علمنا أنّ هذه السّورة نزلت للتعريف بالله -عزّ وجلّ-، ولبيان ما له -سبحانه وتعالى- من عظمة.

---

(١) حسّنه الألباني.

فإذا ظهر هذا نبدأ من عند الكلمة الأولى وهي:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

وهذا أمر يوقظ الوجدان، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ويكون إفاقة للغافلين، لو كان الإنسان يقرأ القرآن حقًّا لأدرك أنّ القرآن يخاطبه، قل يا محمّد، قل يا مسلم، قولي يا أمة الله، قل يا عبد الله -إن كنت صادقًا في إيمانك- قل هذا المعنى بلسانك ووجدانك، كأنّ سائلًا يقول: مَن هو الله الّذي تعبدونه وتكونون أنتم في طريق ونحن في طريق؟ فيكون الجواب من عند الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هنا يظهر لنا اسم الجلالة الّذي مر معنا معناه ولا زلنا نكرر معناه لأنّه من أعظم المعاني الّتي علينا بيانها؛ (الله): "ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين" المعنى: أنّ الله له صفات الألوهية؛ أي له صفات الكمال والجلال والعظمة -سبحانه وتعالى- الّتي يستحق بها أن يكون الإله المحبوب المعظّم، وهو -سبحانه وتعالى- المستحق أن يكون المعبود، فالله الّذي له أوصاف الكمال والجلال والعظمة، وهو المستحق أن يكون المعبود هو واحد، لا يملك على الحقيقة هذا الكون إلّا هو سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١] يجب أن تعلم هذا ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢] فلا يملك حياتك ولا موتك ولا نفعك ولا دفع الضّر عنك إلّا الله، وكلّ أحد غير الله لا يملك لك نفعًا ولا ضرًّا، فأنت يا مؤمن قل هذا الخبر الحقّ المؤيد بالبراهين الّذي لا يرتاب فيه أبدًا، فكلّ شيء

---

(١) المائدة: ٤٠.

(٢) البقرة: ١٠٧.

حولنا شاهد على أنّ الملك ملك الله، والأمر أمر الله، ولا يستطيع الخلق شيئًا إلّا بإذن الله.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهو الواحد في ألوهيته، وهو الواحد في ربوبيته، فلا تجد في نفسك حرج أبدًا، الله واحد في ألوهيته وواحد في ربوبيته فكن حرًّا بعبوديتك لله، ليس في الخلق إنسانًا حرّ على الحقيقة مثل الإنسان المسلم الّذي يعرف عقيدته؛ لأنّ الإنسان المسلم الّذي يعرف حقيقته يعلم أنّه لا يملك رزقه، ولا يملك حياته إلّا الله، ولا يملك موته إلّا الله، ولا يملك ضرّه إلّا الله، ولا يملك نفعه إلّا الله، فماذا يغني الخلق بعد الله؟ فماذا بعد الحقّ إلّا الضّلال؟! لا شيء، ليس هناك بعد الحقّ إلّا الضّلال، والضّلال هذا هو أشد الباطل، أنت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وكلّ شيء انتهى، ولا أحد يستطيع أن يملك أن يمنعني أو يدفعني أو يقهرني، إنما هذا كلّه لله، فكلّ رهبة ورغبة في غيره لا تكون شيئًا. وهذا يشفي الصّدور ويطمئن القلوب ويسكّنها ويدفع عنها سائر الهواجس والمخاوف، واليوم النّاس صدروهم تغلي بالخوف، يخافون على أرزاقهم، يخافون على أولادهم، يخافون من الأمراض، ويخافون من التغير الذي يحصل في الكون...إلى آخر هذه الأشياء الطّارئة والأمور المفاجئة، لكن المسلم المؤمن الموحد يردد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيشفى صدره من الوساوس، يذكر ربّه فيطمئن أنّ هذا الكون كلّه بيد الله، اجمع شتات قلبك ومتفرق مطلبك ورغائبك، وكلّ ما ترهب، اجمعه وفرّ إلى الله، فالله هو الّذي يسيّر هذا الكون كلّه، وهو الّذي يدبّره، وهو الّذي سمعنا عنه في آية الكرسي أنّه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الّذي ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا

نَوۡمٞۚ﴾[1] فحركة الأرض وهي تدور، والأفلاك والسّماوات والأرزاق، العالم العلوي من الملائكة، وعوالم الأرض من الخلق، والأفلاك كلّها تحت أمره، كلّ ذلك قائم بتدبير الله، الله قائم على كلّ نفس بما كسبت، فكن متمسكًا بحبل الله.

بإذن الله نزيد الأمر بيانًا في لقائنا القادم...

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) البقرة: ٢٥٥.

اللّقاء التّاسع

الأربعاء: ٢٦ ربيع الآخر ١٤٤٣هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، لا حول ولا قوة إلّا بالله.

لازلنا بفضل الله في نعمة الله نتدارس سويًا من معاني أذكار الصّباح والمساء ما يعرفنا بالله ويجعلنا لله ذاكرين، وعليه متوكلين، وبه واثقين، فهو -سبحانه- وحده لا شريك له بيده كلّ خير للعالمين، فاللّهمّ اجعلنا من المؤمنين المصدقين الصّادقين في ذكرهم وفي شكرهم وفي جميع عباداتهم وأعنا على ذلك يا ربّ العالمين.

كنا -بفضل الله- بعد أن انتهينا من الذّكر المهم والعظيم وهو (آية الكرسيّ) وصلنا إلى الكلام عن سورة الإخلاص الّتي بها الخلاص من شرك الشّياطين، شياطين الإنس والجنّ الذّين يوسوسون للخلق ويجعلونهم مذبذبين في عقيدتهم وفي إيمانهم. وصلنا بفضل الله إلى فهم منزلة هذه السّورة في الدّين.

وبإذن الله خلال هذا اللّقاء نبدأ في بيان أمورًا تتعلق بهذه السّورة، فأنت من المؤكد أنك تسألين: ماذا يكون في قلب المؤمن عندما يسمع أن سورة تعدل ثلث القرآن؟! ماذا يكون منه من جهة الاهتمام والعناية؟! أكيد أنه سيعتني بها غاية العناية، وسيستعيذ من الشّيطان الرّجيم الّذي يهون عليه هذه السّورة ويقللها في نظره فيهملها، فبدلًا من

الاستبشار بهذا الذّكر يكون الاستهتار بهذا الذّكر! سورة تعدل ثلث القرآن سورة الإخلاص.

ثم يأتي الأمر الثّاني الّذي لابد أن نتساءل عنه وهو: كيف بدأت هذه السّورة بـ ﴿قُلْ﴾ مع إن المتوقع أن تبدأ السّورة بالتّقرير؟ بمعنى أنك تسمعين في السّورة: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أو ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أو ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ولكن من العجيب أنّ هذه السّورة بدأت بـ ﴿قُلْ﴾ وفي هذا من التّنبيه العظيم على المؤمنين أن يكون هذا الأمر العظيم على بالهم دائمًا، فما هو هذا الأمر العظيم الّذي علينا أن نعتني به وهو ظاهر في كلمة ﴿قُلْ﴾؟ هذا الأمر العظيم الظّاهر في كلمة ﴿قُلْ﴾ لو ابتدأنا من عند النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، كأنه يأمر النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أن اعتقدها وبلّغها كما سمعتها، فهو أمر مهم أن يفهمه الخلق جميعًا وأن ينشروه أيضًا، وهو أمر يذكّر فيه الذّاكر نفسه فيقول لنفسه قبل أن يقول لغيره، يقول لنفسه الضّعيفة الفقيرة المحتاجة المتضررة من أمور تدور في الحياة الّتي خلق الإنسان فيها وجعله في كبد فيقول لهذه النّفس ويذكرها: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ليس غيره يوحد، هو الله الّذي وحده لا شريك له في كماله وجلاله وعظمته...التّوحيد كما مر معنا.

وقد لاحظنا فيما مضى أنّ هذه السّورة نقرؤها مع سورة الكافرون في وِتْرنا وفي صلاة سنة الفجر، الحظ الآن قرب صلاة الوتر من صلاة الفجر وتصور كيف يذكّر الإنسان نفسه بهذا المعنى؟! نعم، قلب المؤمن يحتاج أن يتذكر هذه الحقيقة الواضحة مرات ومرات حتّى يرتقي في الإيمان واليقين وحتّى تطمئن هذه النّفس الضّعيفة بأنّ الأمر كلّه بيد واحد -سبحانه وتعالى-، واحد أحد كامل الصّفات لا يشاركه

أحد في كماله. تصور أننا في نهاية يومنا الثّقيل في الاختلاط بالأسباب والاختلاط بالخلق وميل النّفس لبعض الأمور، وربما جاءتها فرص وذهبت عنها، وربما أخطأها ما أحبته، وأصابها ما كرهته، وتقلبات مشاعر للقلب خوف ورجاء وحب وحرص، مشاعر تتقلب بالإنسان طوال الوقت، فيأتي يقرأ سورة الإخلاص في أذكار الصّباح والمساء، في ركعة الوتر يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يختم يومه بهذا، ثم يبتدئ يومه أيضًا بالقراءة في سنة الفجر بـ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ على ما اشتهر في السّنة، فيختم يومه السّابق في الليل المظلم بتقرير عقيدة التّوحيد، وبطمأنة النّفس أنه ليس تائهًا في الدّنيا وليس ريشة في مهب الرّيح، وليس ضائعًا في تقلبات الحياة! لا أبدًا، ينهي يومه بذلك ويبدأ يومه بذلك أيضًا، يكرّر على نفسه هذه الكلمات العجيبة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قل لنفسك الضّعيفة: اطمئني، اطمئني الأمر كلّه بيد الله، اطمئني لك واحد أحد تصمدين إليه كما سيأتي في اسم الصّمد.

هذه العقيدة ما أطيبها من عقيدة تطمئن المؤمن! فمهما مر عليه من أمور ظاهرها أنها ليست على ما يرام وظاهرها أنها شر له هو يقول: لا أنا مطمئن، سأقول لنفسي الخائفة: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو الّذي يدبّر ويصرّف وهو كامل الصّفات، له كمال العلم، وله كمال الحكمة، هو الحيّ الّذي لا يموت، هو القيّوم الّذي لا تأخذه سنة ولا نوم، يقرؤها المؤمن في شدة الظّلام ويقرؤها مع بداية النّور ويطمئن نفسه في أذكار الصّباح بها، يعيد ويزيد في هذه العقائد، يعلّم نفسه هذه العقائد،

ويذكّر نفسه بها في نهاية يومه، وفي بداية يومه، وفي أذكار صباحه وفي أذكار مسائه ليبقى مصححًا لعقيدته.

وهذه العقيدة هي في الحقيقة نجاة المرء في كلّ مصيبة، نجاة المرء في شدته ورخائه، في فرحه وطرحه، فإذا أقبل عليه ما يسره علم أنّه لن يأتي به إلّا الله، وإذا أدبر ما يضره علم أنّه لن يذهبه إلّا الله، وإذا تقلبت به الأمور من سعة إلى ضيق علم أن الفرج بيد الله، ويبقى في أحلك المواقف يقول لنفسه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، ليس كمثله شيء، فهذا المؤمن صاحب العقيدة السّوية ليس مثل الكفار والمنافقين واليهود الذّين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[1] لا، ليس مثل المشركين الذّين لم يضعوا الأصنام إلّا من أجل أن يتمثلوا الإله! لا، ليس مثل اليهود الذّين قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[2] لا، إنما هؤلاء يريدون المحسوسات، يريدون أن يطمئنوا بالمحسوس، وأهل الإيمان قلوبهم ممتلئة بمعرفة الرّحمن -سبحانه وتعالى-، أهل الإيمان حينما يقرؤون القرآن يعرفون الرّحمن، يعرفون أسماءه وصفاته وأفعاله، يجدون في القرآن أن الله هو الّذي أنقذ إبراهيم من النّار، وهو الّذي حفظ موسى من الغرق وهو رضيع لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرّا، يرون الأمور كيف تضيق ثم يوسعها الله، يقرؤون في القرآن ما مصير المتكبرين على الرّحمن ويسمعون قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[3] ينصر المظلومين، ويقسم الظالمين، ويشفي مريضًا، ويهدي ضالًا، ويفرج كربة، ويرد غائبًا.

---

(١) البقرة: ٥٥.

(٢) الأعراف: ١٣٨.

(٣) الرّحمن: ٢٩.

بعد هذه القراءة للقرآن ومعرفة الرّحمن ورؤية آثار أفعاله في كلّ زمان وفي كلّ مكان يرى الإنسان آثار أفعاله -سبحانه وتعالى- فيلخص هذا الأمر كلّه ويقول: ﴿قل هو الله﴾ الّذي يفعل كلّ هذه الأفعال، وعلى كلّ هذه الأفعال -سبحانه وتعالى- قادر، بل هو على كلّ شيء قدير، هو واحد فعلها ويفعل ما يريد -عزّ وجلّ- ولا يشاركه أحد. انفرد بهذه الأفعال -سبحانه وتعالى- كما مر نجّى إبراهيم -عليه السّلام- من النّار، وأنقذ موسى من الغرق، وأخرج من بطن الحوت ذا النّون، ونجّى رسولنا -صلّى الله عليه وسلّم- وهو في الغار، أغرق فرعون وخسف بقارون، وفعل هذه الأفعال العظيمة وهو لازال -سبحانه وتعالى- فاعلًا، لازال مدبّرًا، لازال -سبحانه وتعالى- له الأوصاف الكاملة، فهو الّذي لابد أن تصمد إليه الخلائق.

يأتي المؤمن هنا ويجد نفسه يرى الحياة من خلال أسماء الله -عزّ وجلّ-، يبصر تلك الخيوط الّتي من نور الّتي تربط كلّ شيء بأسماء الله، فيرى كلّ شيء من آثار كمال الله، يرى ذلك في الشّجر والحجر والبشر، يرى ذلك من خلال التّاريخ والواقع، فيعلم أن هذا الرّب الفرد العظيم الأول الّذي ليس قبله شيء، الآخر الّذي ليس بعده شيء، فيشهد الإنسان على هذه الحقيقة ويذكّر نفسه بها فيقول لنفسه: أنا ليس لي في رغبتي ورهبتي إلّا الله، الله الّذي هو قيّوم السّماوات والأرض، وكل شيء يتحرك ويسكن بأمره، كلّ حركة في الأرض راجعة إلى إذنه، لا يقع شيء بغير إذنه ولا بغير علمه، فهو وحده الحيّ القيّوم. ولاحظ الصّلة الكبيرة بين ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ عندما ترى أنّه واحد في جميع تصرفاته وأنّ هذا الكائن أمامك، الأمور الّتي تدور أمامك كلّها

مرتبطة بهذا الاسم العظيم، تحرك المتحرك، سكون السّاكن، حياة الحيّ، موت من أراد الله موته، شفاء من أراد الله شفاءه، مرض من أراد الله مرضه، فرج من أراد الله تفريج الكربة عنه، كلّ هذا مرتبط باسمه الواحد هو وحده الّذي يفعله. مباشرة ينتقل الفكر إلى أنّ من كان الأمر بيده فهو المستحق وحده أن يصمد إليه، هو المستحق وحده أن يطلب منه، هو المستحق وحده أن يطمئن إليه، إذا كان هو وحده الّذي يدبّر الخلائق، يتحرك المتحرك بأمره ويسكن السّاكن بأمره والخير والشر لا يخرج عن قضائه وقدره فالأمر كلّه إلى الله الأحد، فكيف إلى غيره أصمد؟! لن تشعر إلّا ونفسك إلى الله صامدة، وعليه متوكلة، وبذكره مطمئنة.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾

وهنا نقف مع اسم الصّمد: الصّمد في لغة العرب يأتي من الصّمود، ويأتي من القوة، والعرب تقول عن الشّخص الّذي اجتمعت فيه صفات الكمال وجعلوه لكلّ نائبة تنوبهم: صمد، أي أنه يصمدون إليه ليسد حاجاتهم، ليسد ما يقع لهم من خلل، وفي أصل الاستعمال العربي الصّمد هو: الصّخرة العظيمة الّتي يحتمى بها من الفزع، فحين يكونون في مناطق منخفضة وتأتي السّيول وتأتي الوحوش فما لهم إلّا أن يصعدوا ويصعدوا إلى أن يجدوا حجرة صامدة قوية صحيحة يلتجؤون إليها، وهي تكون صامدة وصحيحة لا تتزعزع ولا تتفتت، ولابد أن تكون عالية لكي تعلو عن السّيول وتعلو عن الوحوش.

فهذا أصل كلمة الصّمد ثم انتقلت إلى السّيد عندهم الّذي كمل سؤدده، الّذي يلجؤون إليه ليسد خلتهم ويسد نقصهم. فالله خاطب

العرب بما يعرفون وبيّن لهم من هو الصّمد على الحقيقة، من يستحق هذا الوصف على الحقيقة، بيّن لهم أنه هو -سبحانه وتعالى- الّذي قد كمل في صفاته، كمل في سؤدده، كمل في حلمه، كمل في علمه، كمل في عطائه، فهو في أعلى درجات الكمال وله أحسن الصّفات، وباللّجوء إليه يحصل الاطمئنان. فإذا طلبت رزقًا فهو الّذي تصمد إليه وتطلب منه وتلجأ إليه فيرزقك، وإذا كنت في ضيق ورغبت في لطف ليس مثل لطفه لطف -سبحانه وتعالى-، فهو يبلغ أعلى الكمال في اللّطف، وأعلى الكمال في الرّحمة، وأعلى الكمال في الرّزق، وأعلى الكمال في التّفريج، إلى أين يذهب الخلق؟! من يتمسك بالصّمد القوي الّذي لا يقهر، هل يغرق؟! هل يغلب؟! هل يتأذى؟! لا والله! ولذا نجد أولياء الله الصّالحين المتقين الموحدين هم الذّين يحققون في نفوسهم هذا المعنى، يحققون معنى أن الله هو الصّمد الّذي تصمد إليه الخلائق، حال ما يفزعون لا يفكرون إلّا في الفزع إليه، وحال ما يحتاجون لا يفكرون إلّا في الطّلب منه، وحال ما يخافون لا يطمئنون إلّا بذكره، وحال ما ينعم عليهم بما يحبون يكونون مسارعين لشكره، وحال ما تنقلب عليهم نفوسهم فتوسوس إليهم بالمعاصي به يعتصمون من شر نفسهم وشر الشّيطان، وهكذا يكونون هم أولياء الله الصّالحين، أولياء الرّحمن حقًّا وصدقًا هم الذّين إلى الله يصمدون، وعليه يتوكلون وبه يطمئنون، يكون الله ملجأهم وملاذهم ومعاذهم ومجيرهم، وحده لا شريك له. وبهذا تتحقق لهم الولاية «مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ»[1]

(١) أخرجه البخاري: (٦٥٠٢).

لكن كيف أعرف نفسي أني من أولئك الصّادقين الذّين على ربهم يتوكلون؟ وبه يطمئنون؟ كيف أعرف أني حقًّا إليه صامدة وعليه متوكلة؟ ننظر هل نحن محققون لمعنى هذا الذّكر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لابد من تحقيقها، لما هاجمنا الخوف هل تذكرنا ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وعالجنا خوفنا بهذه الكلمة العظيمة؟! لا تكن خائفًا بعدما تذكرت أن الأمر بيد الله وأنه الأحد الصّمد، لا تكن خائفًا من غيره ولا تكن طامعًا في غيره، أمّا أن تكون خائفًا من غيره خوفًا لا تعالجه هذه الكلمة وطامعًا في غيره طمعًا لا تعالجه هذه الكلمة فأنت تحتاج إلى كثير من المراجعة في توحيدك، السّورة اسمها سورة الإخلاص بحيث تكون أنت أيها المؤمن مخلصًا خالصًا لله فتحقّق في نفسك الانقطاع عن من سواه، والتجرد له وحده، فتثبت أنّه أحد في تدبيره، وفي تيسيره، وفي تقديره، وفي تفريجه، وفي كلّ شيء تثبت أنّه واحد وتشهد على ذلك، وكلّما مر موقف خزّنته في هذه الذّاكرة لهذه الكلمة العظيمة، وقتها يكون الإنسان قد حقق الذّكر بحيث أنه عندما يذكر الله يطمئن، ووقتها يستحق الإنسان اسم الذّاكر لأنه ذكر في فؤاده هذه الحقائق فتذكرها فاطمئن، لا يرجف قلبه إذا عالجه بهذه الحقائق.

وهنا يجب أن ننتبه أنه ليس المقصود أني لا أخاف ولا أغتمّ ولا أهتمّ لا، وإنما المقصود أنه حين يأتي الخوف أعالجه، وأذكر نفسي وأقل لنفسي: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ المتصرف واحد وهؤلاء كلّهم ابتلاء ولكن المتصرف واحد، هؤلاء كلّهم الّذين كأن الأمر بيدهم كلّ هؤلاء إنما هم ابتلاء يختبر به الإيمان هل الأمر بيدهم أم بيد الله الواحد، وإذا نجحت في الاختبار الأول أن الأمر كلّه بيد الله وحده

فمباشرة ستنجح في الاختبار الثّاني، لأنك لن تطرق أبوابهم ولن تسألهم ولن ترجوهم ولن تعقد عليهم آمالًا، ولن يكونوا هم قبلة قلبك أبدًا بل الله الصّمد هو الّذي أصمد إليه، هو الّذي أطلب منه، هو الّذي أطمئن إليه، هو الّذي أخاف أن يغضب مني فأطرد من بابه، وهو الحليم الّذي لا يعاجل عباده أبدًا بالعقوبات، لنحذر أن نفتن في ديننا بسبب الخوف من غير الله، لنحذر أن نفتن في ديننا بسبب الخوف على الأرزاق، أو بسبب الخوف على المكانة، أو بسبب الخوف على أي شأن من هذه الشّؤون، بل لتكون حالة العبد المؤمن حالة الصّفاء في معرفة الله، وكلّما شابت في القلب شوائب ووساوس الشّيطان يقرأ عليها سورة الإخلاص ويذكر نفسه بهذا ويقول: قد سبق لي وأن ضاقت عليّ الدّنيا ففرجها الله، وانقطعت أرزاقًا فوصلها الله، واختبرت في أمور فما وجدت إلّا باب الله ينجيني.

فالقرآن في هذه الأخبار بلسم يقطع الوساوس والشّكوك والرّيب، رحمة تامة غير منقوصة؛ لذا تبقى مشاعرك دائمًا حاضرة إذا كان ذكرك حاضرًا بما يخبرك القرآن عن الله، فحين أخبرك أنه وحده المتصرف، وأخبرك أنه -سبحانه وتعالى- هو الّذي يستحق أن يصمد إليه، فلا تظنّ أنّ حاجة من حاجاتك عند غير باب الله أبدًا أبدًا بل كلّ حاجة من حاجاتك هي في يد الله. فيأتي بيان ما بعده الآن:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

الله يقطع علينا طريق الوسواس تمامًا لأن الّذي يولد لا يكون إلهًا على الحقيقة ولا يكون ربًّا على الكمال، الله هو الأوّل بلا ابتداء، بل هو يبدأ الخلق ويعيده، والّذي يلد لا يلد إلّا مثله أو عديله أو كفوه أمّا الله

فهو الأحد الّذي لا يماثله أحدًا، فهو الّذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذه هي الحقيقة أنّ لا أحد مع الله، "لا أحد مع الله" هذه العقيدة الإسلامية الواضحة الّتي لا خلط فيها، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ليس هناك وسائط بين العباد وبين الله، هذه الجملة ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لتأكيد أنه الصّمد، ليس هناك أحد غير الله، الله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ الله ليس له مكافئ، ليس له مماثل، ليس له مشابه، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[1] هل تعلم سميًا أو مناظرًا أو مشابهًا أو مثيلًا؟! لا والله لا نعلم له سميًا، فمن ثمّ أنت غير محتاج أن تفكر في أحد غير الله، هو وحده صمدك، فأخلص له كلّ شعورك في المحبة والرجاء والرغبة والرهبة، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فلا يكافئه أحدًا ومن ثمّ لا يلجأ لغيره ولا يطلب غيره ولا يحتاج إلى غيره، ليس له كفؤ ولا عديل ولا قرين ولا مساوي ولا مساعد، لا يحتاج سبحانه لا إلى وزير ولا إلى مستشار ولا إلى أي أحد، لا يوجد من يشبهه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] كلّ شيء مسخر تحت أمره، فإذا نفعك أحد من الخلق إنما نفعك لأن الله سخره، وإذا حصل من أحد أذى فليس إلّا ابتلاء من الله.

سيزيد هذا المعنى إن شاء الله عندما نأتي إلى بقية الأذكار الّتي من بينها: «اللَّهمَّ ما أصبحَ بي من نِعمةٍ أو بأحدٍ من خلقِك فمنكَ وحدَك، لا شريكَ لَك»[3]،«اللَّهمَّ ما أمسى بي من نِعمةٍ أو بأحدٍ من خلقِك فمنكَ وحدَك، لا شريكَ لَك».

---

(١) مريم: ٦٥.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) أخرجه أبي داوود (٥٠٧٣).

إذًا في نهاية الكلام سيحصل الاطمئنان للقلب بهذا الذّكر لو كان الإنسان يذكره وهو معتقد هذه المعاني، شاهد بقلبه هذه المعاني، جامع مواقف وأحداث مرت معه ويضعها تحت هذه المعاني فيذكّر نفسه وينجح في الاختبار. ليس هناك إلّا واحد أحد صمد ليس له كفؤ ولا مثيل، فيخرج الإنسان من هذه الصّورة وهو صاف في توحيده من الشّوائب الّتي يمكن أن تطرق إلى القلب.

على كلّ حال، نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يجعلنا ممن قرأ هذه السّورة كما يحب ويرضى، ونسأله أن تكون هذه السّورة سببًا لتخليصنا من الوساوس، اللّهمّ طهر قلوبنا من الوساوس، وسببًا لخلاصنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، سببًا لتثقيل موازيننا، ولمغفرة ذنوبنا اللّهمّ آمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء العاشر

الأربعاء: ٤ جمادى الأولى ١٤٤٣هـ

سورة الفلق

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا ونسأله بمنّه وكرمه أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يرزقنا العمل بالعلم، فإن من امتلأ قلبه بالعلم النّافع فاض ذلك على جوارحه فعمل بما يرضي ربّ العالمين، وكان ختامه أحسن ختام، فاللّهمّ أحسن لنا الخواتيم، اللّهمّ آمين.

قد كنا بفضل الله قد شرعنا في الوقوف على أذكار الصّباح والمساء الّتي امتنّ بها الله على خلقه، هذه الأذكار الّتي تورث الطّمأنينة لمن صدق في الذّكر، صدق في معرفة الحقّ وصدق في اعتقاد الحقّ واجتمع قلبه مع لسانه لحظة الذّكر، فهؤلاء موعودون بطمأنينة خاصّة؛ ولذلك في خضم هذه الحياة وهي اليوم متسارعة والنّاس يجرون وراء الدّنيا والأمور الصّناعية والتّقنية الّتي لا حصر لها نجد في مقابل هذا جفاف في الأرواح، ونجد ظواهر القلق والتّوتر عامة عند الخلق، أمواج من الوساوس والهموم والهواجس من كلّ حدب وصوب، ونجد دائمًا الكلام عن الاكتئاب والقلق النّفسي، وربما هذا الشّيء يفاجئ الإنسان، يكون هو سائر في حياته وهو يجري يجري وليس عنده تصور عن ماذا يحصل

في نفسه وماذا يحصل من جفاف في روحه فيفاجأ بأنّه دخل في الاكتئاب وأنه يعاني من القلق، وتستمر المعاني ربما ساعات، ربما أيام، ربما شهور من حياة الإنسان وسنين، وربما دخل الإنسان في انتكاسات فتصبح الحالة مزمنة وتتراكم المخاوف الوسواسية في نفسه، إلى أن بدأنا نرى ونسمع خواطر عند الخلق لا يمكن أن نستوعبها، فيما مضى لم تكن تأتي على بال أهل الإيمان! فنجد ظاهرة الانتحار، ونأتي إلى مثل هذه الظّاهرة فنجدها ضغوط ضغوط من الشّيطان على الإنسان المؤمن من أجل أن لا يجعل له راحة بال أبدًا، الشّيطان يكره للإنسان راحة البال فيفعل به هذه الأفاعيل، ويكثر عليه هذا التّسحر الحاصل في روحه.

فمن أجل هذا لابد أن نعيد من جديد على أنفسنا هذه الحقائق المعروفة المكررة الّتي كانت ولازالت هي سبب الهدوء عند أهل الإيمان، هي سبب الطّمأنينة الحقّة في هذا الجو المليء بالأمراض والمليء بالتّوتر والمليء بحالات من المخدرات والانتحار، يجب أن نبقى ذاكرين أن الطّمأنينة الحقة لا تكون إلّا باللّجوء إلى ربّ العالمين والاعتصام بحبله المتين والقاعدة عندنا: ﴿إِلّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] نور السّعادة والطّمأنينة الرّبانية يبدد هذه الظّلمات، ظلمات القنوط، هذه الأنوار تكشف عن المكروبين بالاكتئاب والقلق كربهم، تمتص هذه الحقيقة توتر المتوترين، هذا النّور من معرفة ربّ العالمين يؤنس المستوحشين، هذا النّور يدخل إلى القلوب الطّمأنينة بالاعتماد على ربّ العالمين؛ ولذلك نجد أن أذكار الصّباح والمساء -من فضل الله- تنبهنا إلى هذا

(١) الرّعد: ٢٥.

الشّأن العظيم، تنبهنا أننا لسنا شريدين ولا طريدين ولا وحيدين لا، نحن نذكّر أنفسنا في كلّ حين، في صباحنا وفي مسائنا أن لنا ربّ عظيم رحيم، الاعتماد عليه والتّفويض إليه والطّمأنينة التّامة لا تكون إلّا باللّجوء إليه، كيف وهو يقول -عزّ وجلّ-: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[١] كيف يفوض العبد الأمر إلى ربّه ويلح عليه بالدّعاء ولا يكون حسبه؟ الله يغني كلّ من لجأ إليه، يغنيه -عزّ وجلّ- برحمة من عنده تغنيه عن رحمة من سواه. الله يعين العباد على تجاوز كلّ الهموم والوساوس والإرهاقات النّفسية عندما يعتمد عليه العبد ويبقى له لاجئًا وعليه متوكلًا. نحن في هذه الجلسات مقصدنا أن نذكر أنفسنا - ونحن في خضم هذه الأمواج المتلاطمة- أن الإنسان في الحياة في كبد فقد يبتلى باكتئاب وقد يبتلى بقلق، وكما تعلمون العصر عصر صاخب، فيكون الإنسان المؤمن متمسكًا بهذه الأذكار يلهج بها يذكّر نفسه بالحقائق دائمًا ويستحضرها في قلبه فلا شك أنّ هذه الأذكار وهذا التّضرع إلى الله وقت قول الأذكار سيمنح النّفوس كما تبيّن ومضات إيمانية متجددة على الدّوام مع كلّ ذكر، مع كلّ مرة، سيحصن الإنسان من مخاطر زعزعة اليقين، سيحصن الإنسان من تكريس القلق والوساوس، سيحصن الإنسان من الشّكوك والمخاوف، وهذا كله سينقله إلى علاقة عظيمة بينه وبين ربّ العالمين، سينقله هذا كلّه إلى مناجاة وقت قول الأذكار.

ولذا تجدين الإنسان المؤمن وقت قراءة سورة الإخلاص -كنموذج مر معنا- يذكّر نفسه بهذه المعاني العظيمة، يذكر نفسه فيقول: ﴿قُلْ هُوَ

---

(١) الطلاق: ٣.

وهذا المعنى كما هو متبين هو المعنى الرّئيس في الآية، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الواحد الوتر الّذي لا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة ولا ولد ولا شريك، وهو -سبحانه وتعالى- بيده كلّ شيء، بيده السّماوات والأرض وتدبيرهما، فهو الأحد، ويشرح هذا المعنى الآيات الّتي تأتي بعدها، فإذا كان الله هو الأحد الواحد الّذي لا شريك له وهو إلهي الّذي أحبه وأعظّمه وألجأ إليه فكم سيكون في القلب من طمأنينة؟! لو عرفت أن هذا الأحد -سبحانه وتعالى- قد أخبرك عن نفسه كما مثلًا في سورة ص: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1] قد أخبرك عن نفسه -سبحانه وتعالى- أنه وحده القهار فماذا بعد هذا الخبر؟! وحده القهار الّذي بيده ملكوت السّماوات والأرض وتدبير السّماوات والأرض وشأن السّماوات والأرض فانشد الطّمأنينة بذكره ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾[2] أخبرك عن نفسه -عزّ وجلّ- أنه رحمن ورحيم، فكيف بما يحصل في النّفس من طمأنينة وهو -سبحانه وتعالى- جل جلاله وتقدست أسماءه وتنزهت صفاته رحمن رحيم، رحمته عمت كلّ شيء ووصلت لكل حيّ -سبحانه وتعالى-، بل إن الأموات في قبورهم من أهل الإيمان يذوقون من رحمات الله ما الله بها عليم! فالله هو الواحد الأحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله فهل إلى غيره ملجأ؟! فكانت النّتيجة أنّه الله الصّمد الّذي ينتهي إليه كلّ كمال، المتناهي في السّؤدد والكمال، تصمد إليه الخلائق كلّها في حاجاتهم وهو -سبحانه وتعالى- لا يحتاج إلى أحد، كيف لا يورث هذا المعنى الطّمأنينة؟!

---

(١) ص: ٦٥.

(٢) البقرة: ١٦٣.

ولذلك لاحظوا سورة الإخلاص خاصة مطلوب منا أن نكررها ما استطعنا بالإضافة إلى أذكار الصّباح وأذكار المساء فإنها خاصّة لها خاصية في مسألة التّكرار؛ لأن صاحبها يكرر على نفسه هذا المعنى الّذي هو المعنى العظيم

بأن الله أحد وأنه الصّمد الّذي تصمد إليه الخلائق، الصّمد الّذي عنده قضاء كلّ الحاجات، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا الله.

فهذه المعاني لو استحضرها الإنسان سيشعر بالطّمأنينة، هل تخاف على رزقك؟! لا تخف على رزقك لأن الله الأحد هو الّذي يطعم الخلق وهو -عزّ وجلّ- لا يطعم، لا تخف على رزقك لأنه الصّمد -عزّ وجلّ- الّذي بيده الأرزاق؛ ولذلك في سورة الأنعام يقول الله -عزّ وجلّ-: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] الله -عزّ وجلّ- يأمر نبيه -صلّى الله عليه وسلّم- أن يستنكر أن يتخذ غير الله وليًا، كيف أوالي أحدًا غير الله؟! كيف أوالي أحدًا لا يملك ولا ينفع ولا يضر؟! هذا من نقص العقول أن نترك الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي تلجأ إليه كلّ الخلائق وتحتاجه سواء تلجأ إليه اضطرارًا أو اختيارًا، كيف أترك مالك الملك وأتخذ غيره وليًا، وليًا بمعنى "يلي جميع أموري" كيف وأنا عاجز وأترك من بيده ملكوت كلّ شيء وأذهب لمن لا يملك وأوليه أمري، كيف وهو -عزّ وجلّ- فاطر السّماوات والأرض؟! ولذلك هو -عزّ وجلّ- يطعم الخلق: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهذا المعنى تام الوضوح يرزق عباده ويطعمهم وهو -عزّ وجلّ- لا يحتاج ما يحتاجه المخلوق من غذاء؛ لأنه -جلّ وعلا- الغني بذاته،

---

(١) الأنعام: ١٤.

الغني غنى مطلق -سبحانه وتعالى- علوًا كبيرًا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1] إذًا اطمئني مَن تلجئين إليه هو الصّمد السّيد الّذي يلجأ إليه عند الشّدائد والحوائج، وهو السّيد الّذي قد تكامل سؤدده وشرفه وعظمته وعلمه وحكمته. وهو الصّمد الّذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

فكلّ السّورة كلّ جملة فيها تشرح ما قبلها وكلّها تعود إلى أوّل جملة، قل لنفسك: أيّها العبد أنا لي واحد هذا الواحد كامل الصّفات، كلّ الخلق يحتاجونه وهو لا يحتاج إلى أحد، أنا لي واحد هو الصّمد، السّيد الّذي قد كمل في سؤدده.

قل لنفسك: أنا لي واحد هو وحده الملجأ عند الشّدائد والحاجات، وهو الّذي تنزه وتقدس وتعالى على صفات المخلوقين، وهو كامل الصّفات كمل سمعه، كمل بصره، كمل علمه، إذا أردت بقلبك أن تناجيه فهو يعلم السّر وأخفى، وإذا أردت بصوتك أن تدعوه وتطلبه فهو -سبحانه وتعالى- يسمع الأصوات على اختلاف اللغات، وإذا عملت لأجل أن يرضى عنك وتقربت إليه فهو -سبحانه وتعالى- البصير، وإذا ظلمت فهو المطّلع النّصير، لا تقلق أبدًا الله هو الصّمد، السّيد الّذي قد كمل في سؤدده، فالأمر بيده، وإذا طلبته وتوكلت عليه دبّر لك الأمر ومكر بمن يمكر بك، ومكر بكلّ من يمكر بأهل الإيمان. نحن عند كلّ مزعجة وبلية في ديننا ودنيانا إليه نهرب، وعليه نعتمد، وإليه نشتكي، نناجيه ونناديه فهو طبيبنا وهو حبيبنا -سبحانه وتعالى-، ولا أحد معه في الملك، ولا أحد يشاركه في ملكه، ولا أحد يشاركه في تدبيره، ولا أحد

---

(١) فاطر: ١٥.

مهما كانت قوته من الخلق فالله أعطى للخلق قوة ومكنهم من أمور، فمهما كانت قوة هؤلاء فعلى الله المعتمد وإليه المشتكى.

ولذا نفهم مباشرة بعدما فهمنا أن الله هو الصّمد الّذي يقصد في جميع الحوائج وأن النّاس كلهم إلى الله مفتقرون، كلهم يسألونه حاجاتهم، كلهم يرغبون إلى الله في مهماتهم، وهو -سبحانه وتعالى- يدبّرهم جميعًا، وهو -سبحانه وتعالى- بكمال صفاته يعاملهم، فهو العليم الّذي قد كمل علمه، الحليم الّذي قد كمل حلمه، الرّحيم الّذي وسعت رحمته كلّ شيء، فإذا خفت من شيء به تستعين، من هنا مباشرة تفهم لماذا أتت بعد سورة الإخلاص سورة الفلق، أو المعوذتين، وهي من الأذكار الّتي نقولها في أذكار الصّباح وفي أذكار المساء، وهي الّتي نقولها بعد الصّلاة، فهاتان السّورتان المعوذتان من السّور الّتي تورث عظيم الطّمأنينة في القلوب.

۞ولاحظ أولًا الصّلة بين سورة الإخلاص وسورة الفلق:

في سورة الفلق ربنا بيّن بيانًا عظيمًا أنّه الأوّل الّذي ليس قبله شيء وأنّه الآخر الّذي ليس بعده شيء وأن ليس لأحد شيء، وأن الخلق إذا تمكنوا من شيء فالأمر في الحقيقة إلى الله، لأنه سيأتينا أهل الشّرور الّذين نراهم، ونحن نقول لأنفسنا: كلّ شيء بأمر الله، هؤلاء أهل الشّرور موجودون وظاهر شرهم علينا، الله بيّن في سورة الإخلاص أنّ الأمر خالص له، وأنّ المؤمن عليه أن يكون خالصًا في توحيده، وسورة الفلق وسورة النّاس بعد أن تخلص نفسك تمامًا من الالتفات لغير الله سيأتي في الواقع أعداء فكيف أفعل وأنا أؤمن أن الأمر بيد الله؟! أتعوذ بالله من شرور الخلق، وإذا حصل هذا باختصار شديد لن يضروك.

وهذا من الأمور الّتي فيها اختبار، تسليط الخلق وابتلائنا بهم هذا من الأمور الّتي جعلها الله سنة في الكون ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[1] هناك معركة في قلبي بين أني مؤمن أن الأمر بيد الله ولكني أرى أن بعض الخلق في يدهم شأن فما العمل؟ إذا كان بيدهم شأن ما دوري مع نفسي الّتي قوي فيها الاعتقاد أن الأمر كله بيد الله فهؤلاء ما شأنهم؟ لابد أن تؤمن أنهم ابتلاء، وأن الله ينظر إليك ما أنت صانع في هذا الابتلاء، ماذا أنت صانع حين تبتلى بأهل الشّر، هل تصارعهم أنت بنفسك وبقواك أو يكون منك حقًّا اللجوء إلى الله؟ عندما يهجم عليك الشّر وأهله لا تقلق مباشرة قل لنفسك: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ إذا سألتك نفسك: كيف أنجو من هؤلاء الجهال الّذي تجاسروا وفعلوا ما فعلوا ونسوا الله ونسوا عظمة الله وتجرؤوا على المنكرات وحصل منهم الاستعانة بالسّحر أو بالجنّ أو هم كانوا بأنفسهم مؤذيين كيف أفعل؟! هم ابتلاء لتزيد من العبد الاستعاذة بالله، ويؤمن العبد إيمانًا تامًا أنه متى استعاذ بالله صانه الله عن شرهم، ربّ العالمين يؤوي المستعيذين، كيف يلتجئ العبد إلى ربه ولا يكون آمنًا؟ العبد حين يلتجئ إلى بيت الله فالله يؤمنه، ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[2] فكيف بمن يلتجئ بالله؟! لابد أن يجعله الله آمنًا. هنا تأتينا عبادة عظيمة تقابل العبادة الّتي استفتح بها القرآن، القرآن بين عبادتين:

- بين عبادة الاستعانة الّتي جاءت في سورة الفاتحة.
- وبين عبادة الاستعاذة الّتي جاءت في سورة الفلق والنّاس.

---

(١) الفرقان: ٢٠.

(٢) آل عمران: ٩٧.

وعلى ذلك حياتنا كلها بين هاتين العبادتين، بين الاستعانة بالله على مراضيه وبين الاستعاذة بالله من سخطه والاستعاذة بالله من الشّرور والأعداء ومن كلّ ما يضرّ، لماذا هناك ما يضرّ؟ ليظهر من العبد الإيمان والتّقوى واليقين، ليكون من العبد اللجوء إلى ربّ العالمين، وكلها معركة سينتصر فيها أهل الإيمان وسيجدون رايات النّصر مرفوعة عندما يتبعون رسول الله حامل لواء الحمد يوم القيامة، سيجدون هناك النّصر العظيم، معركة وصراع يكون فيها الخوف ويكون فيها الطّمأنينة بذكر الله، باللّجوء إلى الله، بالإقبال على الله.

ومن هنا كانت هذه السّور من أعظم ما يتلى ويقرأ في حالات الخوف بل حتّى في حالات المرض، كما في حديث عائشة كان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ينفث على نفسه إذا اشتكى بالمعوذات ويمسح بيده، في الحديث: «أنَّ النَّبيَّ -صلّى الله عليه وسلّم- كانَ يَنْفِثُ علَى نَفْسِهِ في مَرَضِهِ الّذي قُبِضَ فيه بالمُعَوِّذاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أنا أنْفِثُ عليه بهِنَّ، فأمْسَحُ بيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا. فَسَأَلْتُ ابْنَ شِهَابٍ: كيفَ كانَ يَنْفِثُ؟ قَالَ: يَنْفِثُ علَى يَدَيْهِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بهِما وجْهَهُ.»(١)

وحتى عندما ينام كما هو معروف في الحديث: «إنَّ رَسولَ اللَّهِ -صلّى الله عليه وسلّم- كانَ إذا أخَذَ مَضْجَعَهُ نَفَثَ في يَدَيْهِ، وقَرَأَ بالمُعَوِّذاتِ، ومَسَحَ بهِما جَسَدَهُ.»(٢) وهنا المقصود بالمعوذات تعميمًا معها سورة الإخلاص. فهذه المعوذات والنّفث بها أمر شأنه عظيم وعجيب، أنت عندما تكونين ممتلئة بهذه العقيدة الإيمانية وأن الأمر بيد الله وأننا بالله نستجير وبه نستعين ونحتمي في حماه، وأن الأمر بيد الله، تخيلي

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٩).

هذه المعاني كلها تكون في قلبك ثم تقرئين هذا الكلام الطّيب الّذي يعلن العقيدة الّتي في قلبك، انظري عقيدة الإيمان بالله وبكماله في قلبك ثم تقرئين بلسانك الكلمات الطّيبة كلام الله، الكلمات الطّيبة الّتي تعلن عن هذه العقيدة في قلبك فماذا تتصورين أن يكون في نَفَسك الّذي تتنفسين به، ماذا سيكون عندما تنفثينه؟! ماذا سيكون؟ سيكون الخير والبركة.

إذا نفثت ومسحت فإن الخير والبركة قد وقعا في مقابل أنّه سيأتينا إن شاء الله في المناقشة في اللّقاء القادم الكلام عن فعل السّحرة والشّياطين الذّين نستعيذ بالله منهم ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ هؤلاء النّفاثات في العقد ما حالهم؟ بنفس الطّريقة ولكن على الشّر والضّرّ، نفوسهم خبيثة، عقائدهم خبيثة، كلامهم خبيث، فحين ينفثون سيخرج الشّر كلّه، نفث المؤمن خير وبركة، المؤمن المليء باعتقاد الحق، لا تستهن بهذا النّفث والمسح فإن فيه من الخير ما فيه، يا ليت قومي يعلمون! كم في هذا النّفث من خير لو امتلأ الفؤاد بالإيمان سيفيض هذا الإيمان على الكلمات الّتي سيقولها الإنسان كلمات الخير من القرآن الّتي يعترف فيها بشدة فقره وحاجته إلى الله، ثم يخرج هذا فينفث به فتزداد البركة في نَفْسه وفي نَفَسِه وفي بدنه الّذي مسح عليه، والشّيطان يثقّل الخلق في هذا الفعل ويجعلهم يعرضون عنه وهم لا يدرون أنهم يعرضون عن الخير، يكسلون النّاس عن النّفث، وخصوصًا وقت النّوم يأتي الشّيطان فيقلل للإنسان من قيمة هذه القراءة، وتجده يحتال الحيل وقت النّوم يحتال على الإنسان من أجل أن ينام ولا يقرأ ولا ينفث، وربما قرأ وقلبه سائح في النّوم وفي

الأحلام، والشّيطان يريد منك أن تضيع، ويريد منك أن تذهب عليك هذه الفرصة، ويريد منك أن لا يكون معك من قوة الإيمان ما تثبت به هذا الحقّ ،فالله المستعان وعليه التّكلان ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

نسأل الله أن يعيننا على هذه البلايا، الله يعيننا على ما يحصل من تقصير نتيجة الجري في الحياة، فتأتي هذه الكلمات في أذكار الصّباح أو في أذكار المساء ضعيفة ضعيفة ولا تمثل عقيدة المؤمن.

نحن في حاجة ماسة لمراجعة هذه العقائد وسيتبيّن لنا من أوّل كلمة من كلمات هذه السّورة المباركة كيف أنّ الهموم الّتي نشتكي منها والغموم، إذا قرأتها كما ينبغي ذهبت؛ لأنّ أوّل كلمة:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

فأنت تبدئين بعبادة الاستعاذة هذه العبادة العظيمة الّتي صاحبها يكون غاية في الذّل والانكسار لرب العالمين، هارب عن عدوه، مقبل على حبيبه، مؤمن أن وليه القوي المتين الّذي يدفع عنه شر الأعداء، وربّه هو ربّ الفلق، فيأتي سؤال مباشرة: وما الفلق؟ ألوذ وأعتصم بربّ الفلق، ما معنى الفلق؟ يقول أهل العلم: الفلق كلّ ما فلقه الرّب فهو فلق، وأكثر التّفسيرات على إن الفلق هو الصّبح، وإذا كان التّفسير العام الصّبح والحب والنّوى، فكلّ هذه من الأمور الّتي تنفلق، وإذا نظرنا في الخلق نرى أن الكثير من الأشياء فيها انفلاق، فالأرض تنفلق بالنّبات، والسّحاب ينفلق بالمطر، ولكن أكثر المفسرين على أن الفلق هو الصّبح، فيقال: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي: مَن فلق الصّبح. على المعنى الخاصّ وعلى المعنى العام في النّهاية كله دليل على عظمة الله، ولكن عندما نفكر في هذه الكلمة بالذّات: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ سنجد لها

خصوصية، الله القادر على فلق الظّلام وإدخال النّور عليه هو الّذي إليه ألجأ وبه أطمئن، فهذه السّورة دواء وشفاء للعبد الّذي التّجأ إلى الله فارًا من الهم والغم والضّيق، حين تظلم عليه نفسه وفؤاده ، حين تظلم الدّنيا وتضيق عليه الأرض بما رحبت، فإن سورة الفلق شفاء له وأي شفاء! يستعيذ ويلجأ العبد الفقير بربه -جلّ وعلا- وهو مؤمن أنه صاحب القدرة المطلقة على فك كلّ شر انعقد، صاحب القدرة المطلقة على فك الهم والغم، مهما انعقدت أسبابه مهما تشبكت الأمور لا يفك العقد والانعقاد إلّا ربّ الفلق الّذي يفلقها ويشقها ويبعدها، سمّي الفجر فلقًا لأنه يفلق الظّلمة ويذهبها ويأتي النّور؛ ولذلك ما قال ربّ العالمين: "قل أعوذ برب الفجر" وإنما قال لنا: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ لأنّ صفة الفلق وهي صفة فلق الفجر هذه الصّفة الّتي فيها التّفريق بين اللّيل والنّهار وبين النّور والظّلمة وهو فعل من أفعال الله، فكأن العبد يقول: ربّ هذا الفجر الّذي فلقه من الظّلمة وأظهر النّور وأذهب الليل وأتى بالنّهار، فالذي يفرق هذا ويفلق هذا من باب أولى يفرق ويفلق كلّ شر انعقد يخاف منه الإنسان سواء كان في نفسه أو في ذريته أو في من حوله من الخلق، سواء كان في دنياه أو في أخراه، فالذي فلق الصّبح هو الّذي يفلق هذا الشّر ويذهبه.

أسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن يجعلنا في حماه وأن يرزقنا رضاه، وأن يصرف عنا كلّ شر انعقدت أسبابه أو لم تنعقد، كلّ شر في ديننا، أسأل الله -عزّ وجلّ- وهو مالك الملك أن يفلقها ويقسمها ويذهبها فيظهر النّور وتذهب الظّلمة. أسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم ربّ الفلق الّذي أخرج النّور وأظهره على العباد أن يعمّ بلاد المسلمين بنور

الإيمان والتّوحيد، وأن يقبضنا جميعًا نحن وأحبابنا غير مفتونين، اللّهمّ آمين. نسألك يا رحمن يا رحيم حسن الخواتيم، اللّهمّ آمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الحادي عشر

السّبت: ١٤ جمادى الأولى ١٤٤٣هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا بفضل من الله نتدارس سويًا هذا الموضوع العظيم وهو معرفة الله من خلال ما شرع -سبحانه وتعالى- لنا من أذكار نذكره -عزّ وجلّ- بها، وهذه الأذكار يجب أن تكون خالصة من قلب الإنسان، حاضرة فيها حقيقة المعاني التّي تحملها الكلمات، فالإنسان يجد بعد ذكر الله بهذه الصّورة الصّحيحة من الطّمأنينة ما الله به عليم. وقد وصلنا بعد دراسة آية الكرسيّ، وبعد دراسة سورة الإخلاص، وكليهما يؤسسان تعظيم الله وتوحيده -سبحانه وتعالى- بحيث أن القلب يكون معترفًا بالعبودية من جهته، والألوهية والعظمة والجلال والكبرياء من جهة الله، فيقول بلسانه مكررًا على نفسه، مقررًا هذه الحقيقة، معرّفًا على من يتكل ويعتمد، يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ واحد هو الّذي أعظّمه وأعبده، بيده ملكوت السّماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، ذو الفضل والإنعام. الأحد هو الّذي أنا أعبده وأصمد إليه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلهي الّذي أعلم أنّ له كمال الصّفات هو المستحق أن يكون صمدي. بهذا تطمئن النّفس وتسكن، ومما يزيد سكونها وطمأنينتها أن يكون عوذها ولوذها وقت المخاوف لإلهها الحقّ، فتأتي سورة الفلق وسورة النّاس كما مر معنا.

وتأتي عبادة عظيمة تسبب للنفس الطّمأنينة هي عبادة الاستعاذة؛ والاستعاذة معناها: طلب العوذ، والعوذ بمعنى: اللجوء، حقيقة الاستعاذة طلب الالتجاء مع اعتقاد أن من تلتجئ إليه يمنعك مما تخافه، يحفظك مما تخافه، يدفع عنك هذا الشّيء المخوف. والخوف من أكثر ما يسبب اضطراب القلوب، الخوف من معروف أو مجهول، الخوف من مسألة حسية أو مسألة معنوية، الخوف من فقر أو مرض أو شخص أو جهة، الخوف أمر هو من طبيعة الدّنيا، بل إن ربّ العالمين قد أخبرنا بأنه -سبحانه وتعالى- بعظمته وجلاله ما جعل الدّنيا دار استقرار ولا جعلها دار خلود، ولا جعلها دارًا يجني فيها الإنسان كلّ مراداته! لا، بل هي دار فيها اختبارات، دار ابتلاء، لاحظوا ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ لابد أن يحصل هذا، فهذا هو شأن الدّنيا، الله يبتلي عباده يختبرهم ويمتحنهم: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1]

فالخلق يبتلون بشيء من الخوف ولاحظوا بقليل من الخوف ﴿بشيء﴾ من الخوف. عندما تأتي هذه المخاوف على البال أي لم تقع حقيقة، والإنسان بطبعه يكون شديد الحرص على راحته ويحاول أن يدفع كلّ ما يخيفه، فحين يمر بتجارب وتأتي أمور لم تكن على الخاطر ويخاف منها فتكبر مخاوفه المرة القادمة، أي أن بعد كلّ تجربة إذا ما كان يعبد الله كما ينبغي سيصبح تقادم الأيام عليه سببًا لزيادة مخاوفه، لكن لو عبد الله بهذه العبادة لذابت هذه المخاوف ولعرف كيف تطيب له الحياة، حتّى إذا قضى الله أمرًا عرف وقتها كيف يتعامل

(١) البقرة: ١٥٥.

مع هذا الأمر، هنا نحن نتكلم عن أمور لم تقع ولكن الإنسان بطبيعته يخاف، ويمر بتجارب فيزداد خوفه، ويسمع أخبارًا فيزداد خوفه، فما طريقة طيب الحياة وسط كلّ هذه المخاوف؟ طريقتها الاستعاذة بالله، طلب العوذ من الله عند ورود المخاوف أو عند ظنون المخاوف، فيستعيذ بالله وهو يعتقد كمال الله، وهو يعبد الله بالفرار إلى الله، كلما شعر بخطر أو وسوس له الشّيطان بخطر أو رأى غيره وقع في الخطر فما له إلّا أن يفر لمن يعلم أنه سميع عليم، الله قد قال في سورة الأعراف: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١) وهذا الأمر موجه للنبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ولكلّ من يصلح له الخطاب، يأمرنا -عزّ وجلّ- أن نستعيذ به وأن نهرب إليه عند كلّ مخوف، ونعلم أن لحظة ما نعالج المخاوف بالاستعاذة -أي يقول الإنسان بلسانه: أعوذ بالله مما أخاف وأحذر- فهو يعبد الله والملائكة تكتب له حسنات وعند الله يكون موحدًا، كلّ فزعة من فزعات قلبك إلى الله حسنات تكتبها الملائكة لك لأن الله أمر بها، فهي عبادة لأنّه -سبحانه وتعالى- لا يأمر إلّا بشيء يحبه ويرضاه، فأمره بالاستعاذة دليل على أنها عبادة.

والاستعاذة عبادة قلبية تصدر حقيقة ممن عرف الله، فيها الاعتصام والالتجاء والتحرز، وتكون نطقًا باللسان واعتقادًا بالجنان فرارًا إلى الله، فهذه العبادة تجمع بين قول باللّسان وعقيدة في الجنان، تجمع الطّلب الظّاهر والعقيدة الباطنة؛ لذلك كلّما صح منا اعتقادنا كلما ما تركنا شاردة من المخاوف ولا واردة إلّا إلى الله لجأنا وبه استعذنا.

---

(١) الأعراف: ٢٠٠.

ولذلك عندما تلحظون قولنا في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ويأتي معنى الفلق أنّه -سبحانه وتعالى- الفالق لكل شيء، فالق الإصباح -وهذا معنى من أشهر المعاني- ويجوز أن يكون المعنى أعم: أن الفلق كلّ ما يفلقه الله تعالى من الإصباح والنّوى والحب. فحين يتصور الإنسان فلق الصّبح خاصّة ويجد أنّ اللّيل يذهب والظّلمة معه تذهب وكأنها المخاوف، والصّبح يأتي والنّور يأتي وكأن معه البشرى والطّمأنينة، يتذكر بكلمة الفلق هذا المعنى: أنّ الّذي فلق الإصباح من اللّيل، وفلق الحب والنّوى فالق لمخاوفي والأحزان ومخرج منها طيب الحياة وذلك كله بالعوذ واللّوذ إلى الله.

الّذي نريد أن نؤكد عليه عندما نأتي نقول:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

(مَا) هنا عجيبة جدًا في مكانها، ﴿مَا خَلَقَ﴾ معنى ذلك أنّ الإنسان يعلم أن المخاوف تحيط به، هذا كلّ النّاس يدركونه بل والشّيطان وأعوانه يزيدون مخاوف النّاس من أجل أن يكون النّاس رهناء لهم ويزيدهم في التّمتع برؤيتهم خائفين، هذا أمر لا تستغربه لأن يوم القيامة يأتي الجنّ والإنس ويظهر هذا عندما يقول الله -عزّ وجلّ- لهم مبيّنًا أنهم اتخذوا بعضًا أولياء وكيف أنّه استمتع بعضهم ببعض: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[١] ومن استمتاع الإنس بالجنّ والجنّ بالإنس مثل هذه الأمور أن يقع من الجنّ

---

(١) الأنعام: ١٢٨.

تخويف للإنس، ويقع من الإنس استعاذة بالجنّ نعوذ بالله، فيستمتع بعضهم ببعض فالجنّ يأمر والإنس تعمل، وهذا معروف في سورة الجنّ، ومثله لازال باقيًا أنّ الجنّ تخيف الإنس والإنس تلجأ إلى الأفكار الشّيطانية لتحل المشاكل.

الشّر موجود كلّ الخلق يعرفون ولكن العبد يقول: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ لاحظوا هذه تدلّ على العموم، أي شر وأي أحد فيه شر، الله -عزّ وجلّ- يعيذنا منه، فهذا العموم لابد أن يستحضر في الذّهن من شر جميع المخلوقات، من شر كلّ ذي شر، حتّى من شر نفسك؛ لأنّ النّفس أمارة بالسوء، أوّل ما يدخل في ﴿مَا خَلَقَ﴾ تدخل النّفس، وكما كان في خطبة الحاجة التّي كان يقدم بها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كلامه: «ونعوذُ باللّهِ من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا»[1] فهذه كلّها تدخل في ﴿مَا﴾ وكلّما استحضر الإنسان ﴿مَا﴾ كلّما اتسعت المسألة وزاد دفع المخاوف وعرف الإنسان أنّه هو وكّل ما على الأرض والأرض بمن فيها ملك لله فيستعيذ الإنسان بالله من الشّرور جميعًا، حتّى أنّ الإنسان يشتكي نفسه لله ويشكو إلى الله أنّ يعيذه من شر نفسه. ﴿مَا خَلَقَ﴾ هنا عجيبة جدًا يشمل شياطين الإنس والجنّ والهوام وحتى النّفس، كلّها تدخل تحت ﴿مَا خَلَقَ﴾ أي من شر الّذي خلق -سبحانه وتعالى-، فكل المخلوقات التّي فيها شر تدخل تحت هذه الجملة العظيمة، سبحان الله، وهذه من الأصول المهمة التّي يجب أن نفهمها العموم في القرآن شيء مهم.

---

(١) صححه الألباني.

على كلّ حال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من شر كلّ ذي شر خلقه الله، الرّبّ -سبحانه وتعالى- الّذي خلق وبرأ -سبحانه وتعالى- يستعاذ به من الشّرور، كلّها جمعها من أهل الشّرور، وهنا نؤكد أن الاستعاذة ليست تلاوة وحسب بل هي تدرج في مدارج التّوحيد، الاستعاذة وقلبك مليء بعظمة الله وفي القلب مخاوف لتجعل أن الله ملجأك الّذي يطمئنك وأنت تقول: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فتقرّ أنّه الّذي خلق وأن الأمر كله بيد الله، وتستجير بالله، تستجير برب الأرض والسّماء، تستجير وأنت تعلم أنك إذا دخلت في حماه دخلت في الحصن الحصين الّذي لا يضام ولا يزال ولا يستطيع أحد الاقتراب منك مهما حصلت مواقف وأحداث ففي النّهاية لا يستطيع أحد أن يأتي إليك.

ولذا إذا زاد الإنسان قوة في إيمانه استطاع أن ينتفع من حديث: «واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وإن اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ»[١] عندما يقوى الإيمان يستطيع الإنسان أن يتصور أنّه بهذه الاستعاذة يرقى في مدارج الإيمان، يزداد إيمانًا يحبه الله فيكون سمعه الّذي يسمع به وبصره الّذي يبصر به ويده الّتي يبطش بها ورجله الّتي يمشي بها «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[٢] لاحظوا يجب أن يقوى الإيمان ويقوى الإيمان من أجل أن تأتي الاستعاذة في مكانها ويكون لها أثرها. ومع ذلك ربّنا رحمته واسعة حتّى مع ضعف الإيمان، ربّ العالمين يجعل المؤمنين -

---

(١) صححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

حتّى لو كانوا ضعفاء الإيمان- في حرزه ولكن المطلوب أن يزداد الإنسان بهذه الأقوال التّي يقولها عبادة، من الضّروري أن نجمع قلوبنا وقت هذه الاستعاذة على أننا نعبد الله بهذه الاستعاذة.

ولاحظوا: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ هذا العموم الّذي تدخل فيه الأشياء التّي أعلمها ولا أعلمها، وما لا أعلمه من مخلوقات الله شيء هائل أكثر بكثير من الّذي أعلمه، وأيضًا ما لا أعلمه من مكر الماكرين الله أعلم به، نحن نفوض أمرنا إلى الله، مهما كان هناك مخاوف نحن نفوض أمرنا لله ونستعيذ بالله ونطلب من الله والله لا يخيبنا، حتّى لو أتوا بالشر إلى حدنا فالله يدفع عنا؛ ولذلك في صحيح ما يذكر عن خالد ابن الوليد -رضي الله أنه عنه- لما بلغ أرض الرّوم فاتحًا داعيًا إلى الله قالوا له: (إن كنت واثقًا فيما تحمل؛ اشرب كأس السّم هذا) فقال خالد -رضي الله عنه-: «بسم الله، ثم شربه فما أصابه شيء»(١) وهذا النّموذج يدلّنا على قوة إيمان خالد -رضي الله عنه- من جهة ومن جهة أخرى على أن الإيمان يفعل الأفاعيل في النّفس الإنسانية بل حتّى في البدن؛ ولذا في الحديث الّذي ذكرناه: «مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ»(٢) فتصور حين تكون أنت طائعًا مقبلًا مستعيذًا بالله، كلّ طلبك إلى الله، موحدًا لله، رغبائك ورهبائك إلى الله، فماذا سيكون الأمر بعد ذلك وأنت تعلم أنّ الأمر كلّه بيد الله حتّى لو مكر الماكرين، حتّى لو تعاون شياطين الإنس والجنّ سويًا على المكر بالخلق، على المكر بك وبالمؤمنين، فماذا ستكون النّتيجة؟ «مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ» هذا الشّخص الّذي يستعيذ بالله؛ الله يعيذه ويلقي عليه أمنه وسلمه وسلامه، وتدخل

---

(١) وقعة شرب خالد بن الوليد للسم أخرجها أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة، والطبراني في المعجم الكبير.

(٢) أخرجه البخاري: (٦٥٠٢).

إلى الفؤاد الرّحمة الرّبانية والطّمأنينة الإيمانية والسّكينة فهو في حمى الرّحمن فلا يخاف من شيء بعد ذلك. كلّ شيء أيًّا كان هذا الشّيء لا يخافه، فلا يخيفك أحد، ربّ الأرباب مجري السّحاب هازم الأحزاب هو وليّك إذا استعذت به.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا الخلق أكثر من أن يحصى والشّر الّذي يصدر من هؤلاء الخلق أوسع بكثير وأعقد بكثير من أن يتصوره الإنسان ولكن يكفيك الله وهو السّميع العليم -سبحانه وتعالى-، يكفيك الله إذا اعتمدت عليه. ولكن هذه الاستعاذة لا تحصل حقيقة إلّا حين تأتي إلى الله وأنت معتقد بكماله وأنت بغاية الفقر مظهر حاجتك مسلّم أمرك لربّك، عندما نتعامل مع الله نتعامل معاملة القلوب فالله هو المطّلع على خائنة الأعين وما تخفي الصّدور: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[1] فإذا تجرد القلب من كلّ أحد ومن الاعتماد على أي أحد وأقبل على الله وكان موحدًا توحيدًا صادقًا تخلص فيه من الشّوائب ومن الاعتماد على غيره واتجه إلى الله ولا يلتفت يمنة ولا يسرة إلى أحد غير الله لابد أن يعيذه الله، فالافتقار إلى الله هو روح الاستعانة والاستعاذة، تعرف الله بحقّ وترغب إلى الله وترهب إليه بحقّ ولا تطلب أحد غير الله.

والحقيقة أن هذه العبادة -عبادة الاستعاذة- عبادة تغيب عن كثير من الخلق ولكن هي عبادة عجيبة تتجلى فيها رغبة العبد الصّادقة لأن يكون من يحميه هو الله، فيقف بين يدي الله وقفة المضطر ويكون غاية في الصّدق، يا رب أعوذ بك من الشّرور جميعًا أن تصيبني أو تصيب

---

(١) غافر: ١٩.

أحدًا من أبنائي، أو تصيب أحدًا من أحبائي، أو تصيب أحدًا من المؤمنين، يكون أصدق ما يكون أنه لا حيلة له في دفع الشّرور فيدعو دعاء المستجير الفقير الصّادق في فقره، فمن قرأ الاستعاذة بهذه المعاني أتت ثمارها ووجد طمأنينة في فؤاده وذهب الاضطراب وكلّما اضطرب القلب زاده جرعة من هذا اليقين فتوقف القلب عن الاضطراب بمجرد ذكر الله، وهذا من معاني أن تعبد الله كأنك تراه، ترى آثار عظمته - سبحانه وتعالى- وجلاله، هذا المعنى كلّه يتجلى في هذه العبادة.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾

الغاسق قيل إنّه اللّيل وقيل إنّه القمر والصّحيح أنّه عام، فهو موطن من مواطن الشّرور، استعذنا ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ثم نقول: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ فما معنى هذا العطف؟ هذا العطف من باب عطف الخاصّ على العام، ﴿مَا خَلَقَ﴾ الكلمة الواسعة. و﴿غَاسِقٍ﴾ جزء من مخلوقات الله، والغاسق يستعاذ منه خاصّة والسّبب أنّه الموطن الّذي يكثر فيه الشّر؛ لأنّ الشّر له أهله والعياذ بالله، وأهله لا يمكرون ولا يدبرون إلّا غالبًا في اللّيل، ومن هنا عرفنا أنّ الغاسق وصف اللّيل إذا اشتدت ظلمته، العرب تقول: غسق اللّيل يغسق إذا أظلم. في اللّيل يكون هناك أنواعًا من الشّرور، ويكون هناك أنواعًا من مكر الخلق واجتماعهم على الضّر.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ما معنى ﴿إِذَا وَقَبَ﴾؟ أي إذا اشتدت ظلمته؛ لأن ذلك وقت والعياذ بالله يختاره أهل الشّر والعياذ بالله أهل الدّعارة وأهل بيع الشّرور على النّاس؛ لأنّ في هذا الوقت تتحقق غلبة وغفلة النّاس ونومهم، فيكون سهل التقاء هؤلاء وسهل فعل بيع أو

المتاجرة في الأمور المحرمة. ومن هنا نحن نتعوذ من الشّر الّذي يحصل في هذا الوقت، نتعوذ بأشد أوقات اللّيل توقعًا لحصول المكروه، وهذا الوقت عند أهل الشّر وقتًا للشر ولكن عند أهل الإيمان وقتًا لمناجاة الرّحمن ولسؤاله ولرجائه وللاستعانة به، وقت قيام اللّيل ووقت النّزول الإلهي، فهو عند أهل الشّر -سبحان الله- هو نفس الوقت ولكن عند أهل الشّر يكون للشر وعند أهل الخير يكون للخير، وعلى ذلك تلحظين أن أهل الإيمان تتبارك أوقاتهم وأحوالهم وأوضاعهم دائمًا وأهل الشّر حتّى أماكن وحتى أوقات الخير تتحول في حقّهم إلى شر! والله المستعان.

على كلّ حال نحاول اليوم نكمل معاني الآيات ونزداد إن شاء الله الأسبوع القادم بيانًا لها.

عرفنا:

- ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تدل على العموم.
- ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ عطف خاص على عام، جزء مما خلق الله هذا الوقت الّذي تكون فيه الشّرور، ليس الوقت هو الشّر وإنما هذا الوقت هو الّذي يستفيد منه كثير من أهل الشّر في إتيان الشّر.

أيضًا يعطف على ذلك نوع ثانٍ من الأنواع الخاصّة المعطوفة على العامة ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ما هو هذا الشّر؟

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

وهنا مكان الاستعاذة من شر النّفاثات في العقد أتى في مكان يدلّك على ارتباطه بما مضى مباشرة؛ لأن هؤلاء النّفاثات في العقد أي السّحرة. اللّيل وقت يتحينونه لإجراء شعوذتهم لئلا يطّلع عليهم أحد.

وعندما ننظر للآية نجد أنّ الله أخبرنا أنّ لهم شر، وهذا من اختبار الله وابتلائه للخلق بحيث يمكّنهم من هذا الشّر ابتلاءً واختبارًا، وكله بإذن الله، فمن استعاذ بالله أعاذه مهما حصل من هؤلاء من اتفاق ومن تعاون، ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾ النّفث مر معنا سابقًا، هو: نفخ مع تحريك اللّسان، ويخرج شيئًا بسيطًا من ريق الإنسان، أقل من التّفل. المؤمن ينفث بهذه الآيات الكريمات التّي قد امتلأ إيمانًا بها فطيّب الله نفسه بها فيقرأها فينفث فتنفعه.

وهؤلاء السّحرة والساحرات نفوسهم خبيثة، فإذا وضعوا سحرهم في شيء ونفوسهم خبيثة عقدوا عليه وقرؤوا من تعويذاتهم الشّيطانية ثم نفثوا عليها.

فالمراد ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي: النّساء السّاحرات، ولماذا النّساء؟ لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السّحر النّساء، وقد ذكر بعض المفسرين أن النّساء لا شغل لهن، بعد تهيئة الطّعام والماء والنّظافة ليس لهم شغل فماذا يفعلون؟ يكثرون من الانكباب على مثل هذه السّفاسف من السّحر والتّكهن، فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن، حتّى أن العرب كانوا يزعمون أن الغول ساحرة من الجنّ. المقصد أنّ هذا الأمر ينتشر في النّساء عمومًا لأنّ والله أعلم سواء هذا الّذي ذُكر، أو لضعف قلوبهم تجاه أي مغري، أي شيء فيه إغراء وفيه أغراب يتجهون إليه ويهتمون به، وأي شيء فيه شعور بأنّ المرأة تستطيع أن تتحكم في أحد فتميل إليه، وهذا ليس في المرأة فقط وإنما في المرأة وفي الرّجل. على كلّ حال، من الآية يتبيّن يقينًا أن هذا الأمر ينتشر عند النّساء، فهن نفاثات في العقد.

و﴿الْعُقَدِ﴾ تبيّن لنا وهو ربط في خيط أو في وثب، وهم يزعمون أن السّحر يستمر مادامت تلك العقدة معقودة ولذلك يخافون من حلها، ومن هنا يدفنوها أو يخبئونها في محل لا يهتدي إليه أحد. فأمر الله رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- ونحن تبعًا له -صلّى الله عليه وسلّم- من الاستعاذة من شر السّحرة لأنّ الإنسان عندما يستعيذ بالله لا يلحقه من شر هؤلاء شيء مهما تواطؤوا، مهما تواطؤوا لا يلحق الإنسان من شرهم شيء أبدًا. فالله جعل الاستعاذة من النّفاثات أي من هؤلاء النّساء اللاتي يتعاطين السّحر لأن هؤلاء نفثهم ليس بشيء ولكن عندما تحقد قلوبهم على أحد أو يستأجرون من أجل أن يحقدوا على أحد تجدهم يفعلون كلّ ما يستطيعون لأجل إلحاق الضّرر بهذا الّذي حقدوا عليه أو رأوه عدوًا فممكن يضعون شيئًا في طعامه أو في شرابه، شيء يفسد عقله أو يهلكه، أو أي شيء من هذا الّذي هم قد تمرنوا عليه واكتشفوه والشّيطان يكشفه لهم، فمن هنا نعلم أن هؤلاء أهل شر ليس هناك حل معهم إلّا الاستعاذة بالله من شرهم.

ويأتي علينا في آخر السّورة أن الإنسان من مخاوفه الحسدة فعطف الله -عزّ وجلّ- شر الحاسد على شر السّاحر على شر اللّيل للمناسبة بينهم، كثير من الأحيان يكون الإنسان في نفسه على أحد معين شر فيتمنى زوال النّعمة عن هذا الإنسان، فيكون مشغولًا في يومه وليلته فإذا جاء اللّيل وقت الخلوة وقت الخواطر النّفسية والتّفكر في الأحوال التّي حوله فلا يجد إلّا أنه جعل هذا الإنسان في ذهنه وشعر بأن عنده نعمة وأنا ليس عندي نعمة فيستحسن النّعمة على غيره ويرى أن غيره لا يستحق فيتمنى زوالها عنه؛ غيرة، أنه لماذا يختصّ بهذه النّعمة؟

فالمقصود أنّه عندما يأتي اللّيل تأتي هذه الخواطر، والإنسان لابد أن يعرف أنه ما خلا جسد من حسد ولكن أهل الإيمان وأهل الكرم يخفونه ويعالجون أنفسهم ويؤدبونها، وأهل ضعف الإيمان يجدون أنفسهم لا يستطيعون أن يصبروا فيحملهم هذا على إيصال الأذى للمحسود إما بإتلاف أسباب نعمته أو التّعدي عليه نفسه أو الكلام عنه والحسد أوّل أسباب الجنايات في الدّنيا، إبليس حسد آدم، وأحد ابني آدم حسد أخاه، وهكذا تجدين المسائل تتطور فجأة وتصبح عداوات من شيء ليس مشعور به والسّبب أن الإنسان يستحسن النّعمة على غيره ويرى أنه لا يستحقها.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

في لحظة حسده يندفع إلى عمل الشّر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه والعياذ بالله، فتتحرك الحيل والنّوايا لإلحاق الضّر به، وإن شاء الله تتبيّن لنا أكثر مسألة الحسد وأثرها على النّاس وهي من المخاوف التّي تشغل النّاس دائمًا، نعوذ بالله من الحسد والحاسدين، اللّهمّ احفظنا بحفظك يا ربّ العالمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أنّ لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الثّاني عشر

السّبت: ٢١ جمادى الأولى ١٤٤٣هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من الشّاكرين على نعمائه، الذّاكرين لفضله وآلائه، فقد أنعم -سبحانه وتعالى- على خلقه نعمًا لا عد لها ولا حصر ونحن العاجزون عن شكرها، الرّاغبون دائمًا في المزيد، اللّهمّ تقبل منّا شكرنا الضّعيف واغفر لنا تقصيرنا العظيم في حقّ نعمائك إنك أنت الغفور الشّكور، يا ربّنا طامعون في خيراتك، راغبون في عطاياك، طالبون فضلك وإحسانك ولكننا أولئك العباد الضّعفاء في أعمالهم، زدنا علمًا وعملًا، زدنا معرفة بك.

هذه النّعم من أعظم النّعم نسأل الله أن يزيدنا منها أن نعرف ربّ العالمين، وقد جعل ربّنا الكريم أذكار الصّباح والمساء من التّذكير لنا به وبكماله وبجلاله -سبحانه وتعالى-. وقد مر معنا -وهذا كلّه من فضل الله ومن تيسيره- فدرسنا الآية العظيمة التي هي أعظم آية في كتاب الله، ثم درسنا السّورة الّتي هي ثلث القرآن الّتي فيها خبر الرّحمن، الّتي تشد الإنسان دائمًا إلى الأعلى، تشد الإنسان إلى السّمو عندما يعرف أنّه عبد لواحد، وهذا الواحد -سبحانه وتعالى- كامل في صفاته، قد كمل في سؤدده، كمل في علمه وحلمه ورحمته، كمل في جميع صفاته.

فلمّا عرفنا من سورة الإخلاص أنّه -سبحانه وتعالى- الصّمد ناسب أن يستعاذ به من شر كلّ مخلوق، لما أمرنا -سبحانه وتعالى- بقراءة سورة الإخلاص وفي سورة الإخلاص تنزيه له -سبحانه وتعالى- عما لا يليق به في ذاته وصفاته، كان ذلك من أعظم الطّاعات، وأنّه الحقيقة فإننا لا نستطيع أن نثق بأنفسنا أننا نستطيع أن نقوم بهذه العبادة وهي عبادة التّوحيد الكاملة، خصوصًا وأنّ الشّرور حولنا كثير وأهلها متربصون، والله جعل من سنة الكون الصّراع بين الحقّ والباطل، فكأن قائلًا يقول: (يا إلهي هذه الطّاعة العظيمة أنا لا أثق بنفسي أن أكون وفيًا لها) فكأن الإجابة تأتي من ربّ العالمين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ألْجأ إليه حتى يوفقني لهذه الطّاعة على أكمل وجه، ويحفظني من الشّرور. وكما مر معنا من أعظم الشّرور: شر نفسي وشر الشّيطان وشركه، هذا كلّه من أعظم الشّرور الّتي تمر على الإنسان؛ لذلك لا يصون الإنسان عن شر أهل الشّر من الجهال بالله الّذين يتطاولون على هذا المقام العظيم إلّا أن يصوننا ربّ العالمين، فنحن نلجأ له ونسلم له ونطلب منه أن يسلمنا من كلّ المعتقدات الباطلة، نستعيذ بالله ربّ الفلق، فمن فلق المخلوقات هو القادر على أن يفلق بيننا وبين الباطل فلقًا يقطع عنا شرور أهل الباطل فيكون بيننا وبين الباطل خندقًا عظيمًا، لا يصلنا الباطل ولا نصل إلى الباطل.

ولابد أن نتصوّر اسم الرّب -سبحانه وتعالى- كما مر معنا في هذه السّورة، لأننا من خلال هذه السّور ومن خلال هذه الأذكار نتعرف على الله، ربّ الأرباب -سبحانه وتعالى- مجري السّحاب، هازم الأحزاب. فهذه السّورة بيّنت في معناها الاستعاذة بالله بذكر اسمه (الرّب)، و(الرّب)

هذا من أعظم أسمائه؛ لأنّ في معناه أنّه -سبحانه وتعالى- يحسن إلى عباده ويربيهم فيجلب لهم النّعم ويدفع عنهم النّقم، من شر ما خلق ومن السّحر والحسد. فهاتان السّورتان سورة الفلق وسورة النّاس بيّنتا لنا أنّ البلايا كثيرة وأن ربّنا هو الّذي نرجوه، عندما نخاف لا نهرب إلّا إليه، ونعتقد أنّه كما فلق الإصباح وكما فلق الحبّ والنوى فهو قادر على دفع كلّ بلاء وفتنة، فيكون خوفنا ورجاؤنا متوجه إلى ربنا، ليس إلى غيره؛ ولذلك تلحظون -كما مر معنا- أننا نستعيذ بربّ الفلق، بمعنى اسم (الرّب) خاصّة وهذه الصّفة في الرّبوبية خاصّة وهي الانفلاق.

❁أيضًا من المعاني المهمة هنا والّتي يجب أن تبقى في أذهاننا ونحن نقرأ هذه السّورة: أن ربّنا يعلمنا -وهو ربّ النّاس الّذي يربينا- أنّ الصّراع بين الحقّ والباطل باقٍ، لن يتوقف، سيبقى أهل الحقّ ثابتين بأمره عندما يستعيذون به، وأهل الباطل يقويهم الشّيطان الّذي يريد الشّر للإنسان، والله -عزّ وجلّ- هازمهم ولكن ابتلانا بهؤلاء، ابتلانا بكلّ هذه الشّرور الّتي في الأرض اختبارًا لنا وامتحانًا.

ونحن نعرف في عقيدتنا وهو ما يناسب هنا ذكره مع سورة الفلق أنّ نبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم- قد وقع عليه من سحر اليهود -عليهم من الله ما يستحقّون- ثمّ أنّ الله -عزّ وجلّ- أنزل عليه ملائكة وأنزل معهم هذه السّورة الكريمة العظيمة وسورة النّاس فقرؤوها على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- فنشط كأنما نشط من عقال، وهذا قد ورد في الأحاديث الّتي اتفق عليها الشّيخان؛ عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «سَحَرَ رَسولَ اللَّهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- رَجُلٌ مِن بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ له: لَبِيدُ بنُ الأعْصَمِ، حتَّى كانَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّه كانَ

يَفْعَلُ الشَّيْءَ وما فَعَلَهُ، حتَّى إذَا كانَ ذَاتَ يَومٍ -أوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ- وهو عِندِي» ولاحظوا هذا الأمر: "لَكِنَّهُ دَعَا ودَعَا" وهذا هو طريق أهل البلاء أن يجعلوا البلاء سببًا للدعاء وليس سببًا للوقوف على أبواب النّاس ولا سؤالهم، بل سببًا لسؤال الله، نسأل الله أن يرزقنا هذا التّوحيد الّذي يجعلنا ندعو وندعو، اسمعوا -رضي الله عنها- ماذا تقول عائشة؟ «حتَّى إذَا كانَ ذَاتَ يَومٍ -أوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ- وهو عِندِي لَكِنَّهُ دَعَا ودَعَا» يعني كانت ليلة مختلفة والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- كان أكثر من الدّعاء «ثُمَّ قَالَ: يا عَائِشَةُ، أشَعَرْتِ أنَّ اللَّهَ أفْتَانِي فِيما اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ أتَانِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَ أحَدُهُما عِنْدَ رَأْسِي، والآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقالَ أحَدُهُما لِصَاحِبِهِ: ما وجَعُ الرَّجُلِ؟ فَقالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَن طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بنُ الأعْصَمِ» ومطبوب هنا كلمة معروفة تعبير عن السّحر، وهذان الرّجلان إنما هم الملائكة في صورة رجلان «فَقَالَ أحَدُهُما لِصَاحِبِهِ: ما وجَعُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَن طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بنُ الأعْصَمِ قَالَ: في أيِّ شَيْءٍ؟» يعني السّحر لابد أن يكون من شيء من بقايا الإنسان أو يكون النّفث على شيء -كما مر معنا- في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ «قَالَ: في مُشْطٍ ومُشَاقَةٍ» يعني هذه الأدوات: (مُشْطٍ) الأداة المعروفة، و(مُشَاقَةٍ)هو ما يكون بعد التّمشيط من بقايا الشّعر «وجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ» هذا ما يكون من طلع النّخل «قَالَ: وأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: في بِئْرِ ذَرْوَانَ. فأتَاهَا رَسولُ اللَّهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في نَاسٍ مِن أصْحَابِهِ» أي بعد الحادثة، بعد أن رأى الرّجلان وبعدما قالا له «فأتَاهَا رَسولُ اللَّهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في نَاسٍ مِن أصْحَابِه فَجَاءَ فَقَالَ: يا عَائِشَةُ، كَأنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، أوْ كَأنَّ رُؤُوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ.» يعني تأثرت

بالسحر «قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أفلا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: قدْ عَافَانِي اللَّهُ، فَكَرِهْتُ أنْ أُثَوِّرَ علَى النَّاسِ فيه شَرًّا فأمَرَ بهَا فَدُفِنَتْ.»[1] هذه الرّواية تبيّن أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قد وقع عليه السّحر، في الرّواية الأخرى رواية زيد ابن أرقم: «سَحَرَ النَّبِيَّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- رَجلٌ منَ اليَهودِ، فاشْتَكى، فأَتاهُ جِبريلُ صَلَواتُ اللهِ عليه بالمُعوِّذَتيْنِ، وقال: إنَّ رَجُلًا منَ اليَهودِ سحَرَكَ، والسِّحرُ في بِئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا رضِيَ اللهُ عنه، فجاءَ به، فأمَرَه أنْ يَحُلَّ العُقَدَ، ويقرَأَ آيةً، فجعَلَ يقرَأُ، ويَحُلُّ حتى قامَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كأنَّما أُنشِطَ من عِقالٍ، فما ذكَرَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لذلك اليَهوديِّ شيئًا ممَّا صنَعَ، ولا رآهُ في وجْهِه.»

فهذا طبعًا دليل على أنّ الصّراع بين الحقّ والباطل باقٍ، وأنّه لا يمكن أن نتصوّر أنّ الدّنيا تفرش وردًا لأهل الاستقامة ولأهل الطّاعة، وها هو النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يقع عليه هذا الأمر، وقد اتفق الشّيخان على تصحيح هذا الحديث والقصّة مشهورة، والسّحر الّذي أصابه -صلّى الله عليه وسلّم- كان مرضًا من الأمراض العارضة والله شفاه منها، يعني السّحر في النّهاية إنما أثره على الأبدان كأثر الأمراض، سواء كانت الأمراض العقلية أو الأمراض البدنية، وقراءة القرآن شفاء للأمراض البدنية والأمراض النّفسية والأمراض العقلية.

فهذا لا يستوجب نقصًا في النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وهذا موضوع جانبي ولكن نؤكد عليه؛ أنّ المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء، فالنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أغمي عليه في مرضه، والنّبيّ -صلّى الله

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

عليه وسلّم- وقع حين انفكت قدمه[1] وهذا من البلاء الّذي يزيده الله به رفعة في منزلته ونيلًا لكرامته، وكما تعلمون أشد النّاس بلاءً الأنبياء، ابتلوا من أممهم بالقتل وبالضّرب وبالشّتم وبالحبس، فليس ببدع أن يبتلى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-.

على كلّ حال، المقصد هنا أنّ الصّراع بين الحقّ والباطل باقٍ، وأنّ أهل الباطل يبحثون عن أي طريقة لإسكات أهل الحقّ، وها هم تعرضوا للنبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وأرادوا أن يؤذوه، وهذا الحمد لله لم يدخل في الشّرع أبدًا، فقد نزّه الله الشّرع والنّبيّ عن ما يدخل في أمره لبسًا وإنما السّحر مرض من الامراض وعارض من العلل، يجوز كأنواع الأمراض، وهذا لا يقدح في نبوة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ولا ينكر.

المهم أن نفهم هذا الأمر الّذي نعرف من ورائه أن هذه الصّورة لها خصوصيتها في شفاء الأمراض بإذن الله إذا قرأها الإنسان وقلبه مليء بالإيمان، ربّنا الّذي فلق الإصباح، فلق الحب والنوى، ربّنا يفلق ويقسم كلّ شر.

۞وانظروا ما في هذه السّورة من دلائل النّبوة:

- فهي عندما نزلت كان معها خبر من جبريل أنّ هناك مَن سحر للنبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-! فهذا دلّ على نبوة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لأنّه جاءه الوحيّ أنّه سُحِر وهم فعلوا هذا الشّيء غيبًا أي سرًا ولكن الله أعلم رسوله.

(١) وفي هذا الحَديثِ يَروي أنسٌ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سقَط عن فَرسِه «فجُحِشَتْ ساقُه»، والجَحْشُ: الخَدْشُ أو أشَدُّ منه قليلًا، وقد أصابَهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع ذلك رَضٌّ في الأعضاءِ، ووجَعٌ منَعَه مِن القِيام في الصَّلاةِ.

- ثم هناك أمر ثانٍ مهم: أنّ الله أبطل عمل السّحر بتلاوة القرآن، فيصير للقرآن في إبطال عمل السّحر شيء عظيم.

تعرفون في القصّة أنّ موسى -عليه السّلام- بأمر الله ضرب بعصاه ليبطل سحر السّحرة، فتحولت هذه العصاة إلى أفعى كبيرة أكلت ما يأفكون، هذا الحدث وإن كان آية عظيمة لموسى -عليه السّلام- ولكن الأعظم من ذلك ما حصل لنبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم- وهو إبطال السّحر وأثر السّحر بتلاوة القرآن، وهذا لا يكون إلّا باللّطف من الله ربّ الأرباب -سبحانه وتعالى- ربّ الفلق، فكما فلق الصّبح وانتشر فلق الليل عن الصّبح وانتشر نور الصّبح فكذلك يفلق كلّ مرض وكلّ بلاء وكلّ سحر وكلّ أثر لعين يفلقها ويذهبها ويأتي بالعافية، فما لنا في ذلك إلّا الإيمان بربّ الفلق. وهذا نبيّنا الكريم بشر له مقام النّبوة ولكنه بشر، فوقع عليه مثل هذا، وكلّنا نؤمن أنّ في هذا الموقف وفي غيره تحقّق: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾(١) فليكن رسول الله عبرة وأسوة، وما مر به من صراع مع أهل الباطل دائمًا أمام أعيننا، فهذا دليل على وقوع الابتلاء للصالحين، ولا تظنّ أنّ الإنسان عندما يصلح لا يقع عليه البلاء، بل يقع ولكن إيمانه يكون قويًا، إيمانه قوي فمعاني القرآن ترتسم في داخله وتثبت في داخله وتظهر عليه، فلابد من إحسان الظّنّ في الله واللّجوء إلى الله بالدّعاء وأعظمها المعوذات عند وقوع البلاء. ونحن في هذا نؤكد أنّ السّحر له حقّيقة وتأثير على البدن

---

(١) الأعراف: ١٨٨.

ولكن ليس هناك حل حقّيقي إلّا أنّك تزيد إيمانك وتتيقن بالرّحمن وتقرأ القرآن قراءة من يثق بربّ الفلق -سبحانه وتعالى-.

هنا تأمّلنا في هذا ومر معنا وتأكدنا جميعًا أنّ سورة الفلق كما قال ابن القيم: «سورة الفلق من أكبر أدوية المحسود»[1] نحن عرفنا أننا سنستعيذ من شر ما خلق، و(ما) هنا تعمّ كل شيء، شر نفسنا، شر الشّيطان وشركه، الشّرور كلّها الّتي نشعر بها والّتي لم نشعر بها، الّتي انعقدت أسبابها والّتي لم تنعقد أسبابها، تقول وأنت ممتلئ إيمانًا ويقينًا بربّ الفلق الّذي يفلق، فالق الحب والنوى قاسمهم أن يجعل بينك وبين الشّر خنادق ويبعدك عنهم ويبعد الشّر عنك، ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وخاصّة ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ مسألة السّحر والحسد أيضًا، ولذلك ابن القيم يقول: "فهذه السّورة من أكبر أدوية المحسود فإنها تتضمن التّوكل على الله والالتجاء إليه والاستعاذة به من شر حاسد النّعمة فهو مستعيذ بوليّ النّعم ومُوليها" وانظر كيف يظهر اسم (الرّب) الآن، يقول: "كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ أنا عائذ بك من شرِّ من يريد أن يَسْتَلِبها مني ويُزيلها عني وهو حسْب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه وهو الّذي يؤمِّن خوف الخائف ويجبر المستجير وهو نعم المولى ونعم النصير فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ﴾[2]"

---

(١) بدائع الفوائد.

(٢) الطلاق: ٣.

الّذي يقرأ سورة الفلق يعتصم بالله من شر ما انفلق عنه الخلق أيًّا كان ظاهرًا أو باطنًا ومن الباطن الحسد، فأنت ربي الّذي أسديت إليّ النّعم، الحمد لله ربّ العالمين، الحمد لله على نعمائه، أنت ربّي الّذي أسديت إليّ النّعم، أنا أستعيذ بك وحدك لا شريك لك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني.

إذًا ما لنا حمى إلّا ربّ العالمين، نعوذ ونلوذ إليه من كلّ شيء يخيفنا سواءً هذا المخوف ظاهر، سواء كان هذا المخوف باطن، سواء كان معلوم، سواء كان مجهول، فالله تعالى فتح لعباده أبوابه لكي يلوذوا إليه ويدخلوا في حماه، وهو -عزّ وجلّ- يناديهم فنعوذ بالله أن نكون من الشّاردين عن رحمته، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن يجعلنا من المقبلين على حماه، نذهب إليه هرولة، نسعى ونسعى إلى مأمننا من أجل أن نطمئن، بهذا تطمئن القلوب، وهو -عزّ وجلّ- مطّلع على ضعفنا، وهو -عزّ وجلّ- الّذي جعل من سنته أن يكون لنا أعداء وأن يكون حولنا مخاوف، وهو الّذي يأمننا ويطمئننا والحمد لله.

ونذكر أنفسنا أنّ هناك مخلوقات فيها شر والشّر يأتي بالضرّ للإنسان والخوف، فالإنسان يستعيذ من شر المخلوقات الّتي لها شر عمومًا ومن شر الغاسق إذا وقب ومن شر النّفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد، ويتذكر الإنسان دائمًا أنّ ليس له مهرب إلّا هذه العبادة العظيمة، يعبد الله بالاستعاذة. ومر معنا أنّ الاستعاذة كلمة يقولها الإنسان بلسانه ولكن يجب أن يكون وجدانه مليء بالثّقة بالله والالتجاء إليه والاعتصام والانطراح بين يدي الرّب والافتقار إليه والتّذلل بين يديه وهذا أمر كما يقال لا تحيط به العبارة، هذا شيء لا

يمكن شرحه. وكما عرفنا أنّ الظّلام ينفلق ويأتي النّور فكذلك كلّ الشّرور عندما نعتصم بالله يفلق عنا الشّر ويظهر لنا الخير -عزّ وجلّ- ويأمننا، وهذا ما نحتاجه جميعًا، فنذكر أنفسنا دائمًا ونحن نقرأ هذه السّورة أنّ القادر على إزالة هذه الظّلمات الشّديدة عن كلّ هذا العالم وتطلع الشّمس وينفلق الصّبح وتذهب الظّلمة هو القادر أن يدفع عني وأنا أستعيذ به كلّ ما أخافه وأخشاه في اللّيل ومن شر السّحرة ومن شر الحسدة، فكلّما نظرتم إلى الصّبح تذكروا مجيء الفرج، الإنسان عندما يكون مبتلى كأنّه في اللّيل ويكون منتظرًا لطلوع الصّبح، وقد قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[1] من يشك أنّ الصّبح سيخرج؟ لا يشك عاقل، كذلك الخائف يكون من حسن ظنّه بربّ العالمين مترقبًا لطلوع صباح النّجاح، فانتظر الفرج أيّها المؤمن وأبشر به فالرّب -سبحانه وتعالى- قد أمرنا قال لنا: قولوا أعوذ بربّ يعطي إنعام فلق الصّبح قبل السّؤال فكيف بعد السّؤال؟! فالنّاس لا يقولون لربّنا: (يا ربّ أذهب عنا اللّيل وافْلِق لنا الصّباح) نحن نستعيذ بربّ يعطي هذه النّعمة، يفلق الصّبح قبل السّؤال فكيف لا يفلق عنك الشّرور بعد السّؤال؟! الله المستعان. اللّهمّ زدنا يقينًا واجعلنا من الشّاكرين وأذهب عنا الخوف الّذي لا يجعلنا نلجأ إليك، واجعل كلّ مخاوفنا سببًا للفزع لك يا ربّ العالمين، نحن واثقون بربّ العالمين. ولا تنسوا أنّ ربّنا -سبحانه وتعالى- هو الّذي أمرنا أن نستعيذ به من الشّرور، فنحن نعبد الله في هذه الاستعاذة، والنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- علمنا أحاديث كثيرة فيها الاستعاذة، مثل: «أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ»[2] والنّبيّ -

---

(١) هود: ٨١.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٩).

صلّى الله عليه وسلّم- قال: «تَعَوَّذُوا باللَّهِ من جَهْدِ البَلاءِ، ودَرَكِ الشَّقاءِ، وسُوءِ القَضاءِ، وشَماتَةِ الأعْداءِ.»[1] فأنت لو راجعت عبادة الاستعاذة في النّصوص ورأيت كم استعاذ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من أمور؛ لعرفت أنّ كلّ الأمور التّفصيلية الّتي تخاف منها الله -عزّ وجلّ- قد أمرك بالاستعاذة منها.

وتذكر هنا أنّ كلّ الشّرور داخلة في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ حتّى جهنم تدخل في هذه الاستعاذة، مر معنا أنّ الاستعاذة هنا عامة، من شر نفسك ومن شر الشّيطان وأيضًا حتّى جهنم تدخل فيها، والله -عزّ وجلّ- وهو خالق الخير والشّر أخبرنا أنّه خلق الخير والشر ليكون الاختبار أي بدون الخير والشّر لا يكون الاختبار.

لنؤكد هنا على معنى أخير في السّورة، المرة الماضية تناقشنا في معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ وبيّنا أن المقصود هنّ: السّواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيل، وأنّ هذه العقد الله -عزّ وجلّ- يفلقها، عندما تقرأ هذه السّورة بقلب يفلقها الله ويذهب شرها.

❀نأتي الآن ونؤكد على معنى الحسد كما أننا نستعيذ بالله من شر النّفاثات في العقد، نستعيذ بالله من شر حاسد إذا حسد، من عجائب هذا الشّر أنّه اقترن بشر السّحر، والسّبب أنّ أثر الحسد -والعياذ بالله- يقارب أثر السّحر على النّاس؛ لأن الإنسان تكون عليه نعمة ثم تذهب.

أولًا قبل أن نتكلم عن أي أحد من النّاس نفكر في أنفسنا، قال ابن تيمية: (ما خلا جسد من حسد ولكن الكريم يخفيه واللّئيم يبديه) فهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٦)، ومسلم(٢٧٠٧).

المعنى يجعلنا نخاف من أنفسنا، لا نكون واثقين ونحن نبرئ أنفسنا ونجعل أنفسنا بعيدين عن أن نكون حسدة! لا، فالحسد موجود في نفوس النّاس.

إذا كان موجودًا كيف أعالجه في نفسي؟

أوّل شيء لابد أن نعمل عملية قبض على الذّات، قبض على أنفسنا عندما نجدها حاسدة لأنّ الحسد ممكن أن يمر ولا نشعر به، ولكن باختصار هو شعور بالانزعاج أوّلًا لنعمة الغير، ننزعج أنّ أحدًا أتاه الله نعمة ثم لنرتاح من هذا الانزعاج، يأتي التّمني الخفي أن تذهب عنه هذه النعمة بأي صورة! تذهب عنه مثلًا لأننا نرى أنّه لا يستحقها، تذهب عنه وتتحول لي أو تذهب عنه ولا تتحول لي، المهم أنّه شعور حاد يحبس في جوف الحاسد فيكره وجود النّعمة عند المحسود، فيتمنى أن تكون له أو يتمنى فقط زوالها حتّى لو ما كانت له المهم ألا تبقى لهذا! واعلموا أنّ أعظم ما يملك الإنسان ويحصل عليه الحسد كما أخبرنا -عزّ وجلّ- هو الإيمان، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[١] فهم يودّون هذا السّوء للمؤمنين غيظًا من تمتع المؤمنين بنعمة الإيمان لأنّهم يعرفون أنّ هؤلاء على حقّ؛ ولذلك كلّ الّذي تراه من الهجوم على ثوابت الإسلام وغيرها من أمور الله بها عليم إنما هي من آثار الحسد، فالإنسان يجب أن يعرف النّعمة الّتي امتن بها الرّحمن، فالإيمان أعظم نعمة، والحساد همهم أن يزيلوا الإيمان منك ومن ذريتك، فليكن لسانك مداومًا على ذكر الله وعلى شكر الله على نعمة الإيمان. اللّهمّ لك الحمد أن أنعمت علينا

---

(١) البقرة: ١٠٩.

بالإيمان ويسرت لنا تلاوة القرآن وعرفتنا بك يا رحمن، زدنا يا ربّ معرفة بك ويقينًا بك وثقة بك وحسن ظنّ بك، واجعل هذا في قلوبنا وقلوب ذرياتنا وقلوب المسلمين جميعًا، اللّهمّ حبب لنا ولذرياتنا الإيمان وزيّنه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

على كلّ حال لا نستطيع أن ننكر أبدًا وجود هذا الشّر وهذا الحسد وخاصّة على الإيمان ولكن نتصبر على الإيمان، وعمومًا ظهور الفضل يثير الحسد، قال عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه-: "ما كانت نعمة الله على أحد إلّا وجد لها حاسدًا".

المهم نريد أن نتفق على أنّه يكون في طبيعتنا الحسد ونحن غافلون، لابد أن ننتبه ونكون على حرص شديد من معالجة مثل هذه المشكلة في نفوسنا وطلب من الله أن يبارك لنا ويبارك لغيرنا وأن يرزقنا خير الخير ويدفع عنا الشّر وكل الشّر وأن يزيدنا بركات، اللّهمّ زدنا بركة.

على كلّ حال، لابد أن نعرف أن الحسد هو: بغض نعمة الله على المحسود، هذا العيب العظيم! فالحاسد عدو النّعمة كما مر في كلام ابن القيم، وربما زاد شر هذا الإنسان فوقع على المحسود ضرّ عظيم، وقد ذكر بعض أهل العلم -وهذا من أسباب أنّ في السّورة قرن الله بين شر الحاسد وشر السّاحر- أنّ الشّيطان يقارن السّاحر والحاسد ويحدثهما ويصاحبهما، ولكن الحاسد تعينه الشّياطين بلا استدعاء منه، الحاسد لا يستدعي الشّيطان؛ لأنّ الحاسد شبيه بإبليس وهو في الحقّيقة من أتباعه لأنّه يطلب ما يحبّه الشّيطان من فساد النّاس وزوال نعم الله عنهم، كما أنّ إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسدًا، فالحاسد من جند إبليس "أمّا السّاحر فهو يطلب من

الشيطان أن يعينه ويستعينه وربما يعبده من دون الله حتّى يقضي له حاجته وربما يسجد له"[1] هذا كلام ابن القيم لبدائع الفوائد يعلل فيه لماذا قرن الله بين شر الحاسد وشر السّاحر والله أعلم.

لماذا ختم الله هذه السّورة بالاستعاذة من الحسد؟ قال الحسين ابن الفضل: "إنّ الله جمع الشّرور في هذه الآية وختمها بالحسد ليعلم أنّه أخس الطّبائع" نعوذ بالله.

الّذي يستعيذ من شر حاسد إذا حسد ماذا يريد؟

- يريد أن يدفع عنه شر عينه إذا ظهر حسده.
- يريد أن يستعيذ منه أن يحمله فرط الحسد على إيقاع الشّر بالمحسود، مثلًا يتتبع مساوئه ويطلب عثراته.

إذًا عندنا طريقتين للحاسد هي الّتي أستعيذ بالله منه:

- الطّريقة الأولى تأتي عينه، يعني حسده فأعان بعينه فيصيبه بعينه فتزول منه النّعمة أو يتضرر في بدنه.
- أو يحمله الحسد على أنّه يوقع الشّر.

مثلًا هذه طالبة متميزة فحسدها أصحابها، فيأتوا لكتبها ويمزقوها، أو هذه جارة حسدت جارتها على أخلاقها أو أي شيء فمثلًا تكلمت في عرضها أو تكلمت في ظهرها، فحملهم الحسد على إيقاع الشّر بالمحسود، فيتتبعون مساوئه ويطلبون العثرات وطبعًا كلّ النّاس فيهم عيوب فهذا ماذا يفعل؟ يتتبع العيوب، وهذا أمر قليل من ينجو منه ولكن عندما نستعيذ بصدق؛ الله -عزّ وجلّ- يدفع عنا هذه الشّرور ويحفظنا، وأنتم تعلمون قصّة آدم -عليه السّلام- مع إبليس وكيف

---

(١) بدائع الفوائد.

حسده وأوقعه في الذّنب حتّى أخرجه من الجنّة، وفي الأرض حسد قابيل ابن آدم أخيه هابيل حتّى قتله، فانظروا كيف يمكن للحسد أن يجعل الإنسان يفعل هذه الأفعال! نعوذ بالله من شر كل ذي شر.

وقد ذكر في التّفسير أنّ اليهود لم يمنعهم أن يؤمنوا بالنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- إلّا حسدهم، فنستعيذ من شر حاسد إذا حسد سواء عانه أو سحره أو بغى به سوء.

ختمت السّورة بالحسد لأنّه أخس الأنواع الّتي ممكن أن تأتي بالمشاكل الأخرى كلّها، والله المستعان.

على كلّ حال، كلّ الشّرور نسأل الله أن يحفظنا منها ونحن نستعيذ بالله من أن تقع علينا وخاصّة ما يمكر بنا في اللّيل، وخاصّة النّفاثات في العقد، وخاصّة أهل الحسد الّذين يكرهون الخير لنا. نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممن تمسك بحبله فنجا، واستعاذ به فاطمئن، أهم أمر بعد الاستعاذة أن نطمئن لله -عزّ وجلّ-.

أسأل الله بمنّه وكرمه أن يبارك لنا هذه اللّقاءات وأن يزيدها وينفع بها ويجعلها في موازيننا عندما نلقاه.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الثّالث عشر

السّبت: ٢٨ جمادى الأوّلى ١٤٤٣ هـ

سورة النّاس

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله الّذي تفرد بالأحادية والصّمدية، وأعاذ عباده من شرور ذوي النّفوس الرّدية، ووقاهم شر الوساوس والخطرات والأذية، وصلّى الله وسلّم على سيد البرية محمد وآله وأصحابه أرباب الأعمال السّنية والأخلاق الزّكية وبعد؛ فإنّ هذا اجتماعنا المبارك على مدارسة أسماء الله -عزّ وجلّ- الواردة في الأذكار اليومية.

وقد مررنا بفضل الله في الأذكار على آية الكرسيّ أعظم آية في كتاب الله، وعلى سورة الإخلاص الّتي هي ثلث القرآن. ثم انتقلنا إلى هذه السّور العظيمة سور الاستعاذة، تدارسنا سويًا سورة الفلق وعلمنا كيف أنّ ربّ العالمين طمأن نفوس المؤمنين بأن علمهم ماذا يفعلون عندما يكونون خائفين -والخوف هذا من طبيعة الإنسان- وعلّمهم كيف يلتجؤون إلى ربّ العالمين لتحصل لهم الطّمأنينة، الطّمأنينة الّتي هي مطلب كلّ إنسان، الطّمأنينة الّتي هي ما يرغبه الخلق في هذه الحياة، يرغبون صلاح البال، علمنا رسولنا الكريم بوحيّ من ربّ العالمين كيف نتحصن من شرور العباد، علمنا كيف نتعوّذ برب الفلق الّذي هو فالق الإصباح، فالق الحب والنوى، كما يفلق النّور ويدفع به الظّلمة فكذلك

هو -سبحانه وتعالى- يفلق عنا الشّرور ويبعدها، وبهذا تحصل الطّمأنينة للنفوس، والتّعوّذ هو: الالتجاء من مخوف إلى من نثق أنّه يرد عنا هذا المخوف.

ولا سيما الآن ونحن نتدارس في سورة النّاس سنرى أنّ أعظم ما نهرب منه الشّيطان، الّذي عداوته لنا أصيلة، وهو الّذي يثير علينا الشّرور، فمن أجل أن تطمئن النّفوس جاءت هذه الكلمات العظيمة الّتي علمنا إياها ربّ العالمين، علمنا عن الشّيطان وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1] فالمسارعة في طلب العوذ منه والتّحصن من شره والتّحصن من شر كلّ ذي شر مطلوبة، ونحن مأمورون بها، نقولها بعد كلّ صلاة ونقولها في أذكار الصّباح وفي أذكار المساء، إيمانًا منّا أننا ضعفاء وأننا لا نقوى على مقاومة العدو، بل لابد أن نلجأ إلى ربّ العالمين من كلّ الشّرور، فالله المستعان وعليه التّكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نبدأ الآن بالنّظر إلى هذه السّورة العظيمة سورة النّاس، ونرى كيف أنّها تفسر لنا شيء من سورة الإخلاص...

❁كيف تفسر لنا شيء من سورة الإخلاص؟

في سورة الإخلاص نقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فتأتي سورة النّاس تذكرنا بالأحد الصّمد أنّه رب النّاس وملك النّاس وإله النّاس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ فكيف لا تطمئنون إليه؟! يكون اليوم إن شاء الله تركيزنا على هذا المعنى، ثم إن

(١) فاطر: ٦.

شاء الله فيما نستقبل من لقاءات نتكلم عن المعنى الثّاني وهو شر الشّيطان ووساوسه وإن كانت المعاني ستتداخل في الكلام.

أوّلا سنلحظ ملاحظة مهمة وهي أنّ هذه السّورة الّتي هي سورة النّاس الاستعاذة فيها من شر واحد وهو شر وسوسة الشّيطان.

في مقابل أنّ سورة الفلق كنا نتعوّذ من ثلاثة أشياء، أوّل شيء بالعموم ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ثم أتت الثّلاثة أشياء بالخصوص: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ومع ذلك أتى اسم واحد وهو ربّ الفلق.

هنا نحن نستعيذ من وسوسة الشّيطان ولكن عندنا ثلاثة أسماء: (ربّ النّاس)، و(ملك النّاس)، و(إله النّاس).

فأكيد أنّ شأن الوسوسة الّتي هي مذكورة في هذه السّورة أمر عظيم ولذلك ذكر الله ربوبيته للناس، وملكه إيّاهم، وإلهيته لهم؛ كمقدمة، نستعيذ بالله الّذي هو ربّ النّاس وملك النّاس وإله النّاس من الشّيطان ومن وسوسته. معنى ذلك أنّ هذا أمر عظيم، ولابد أن يكون هناك مناسبة بين ذكر هذه الأسماء (ربّ النّاس) و(ملك النّاس) و(إله النّاس) مع ذكر الاستعاذة من الشّيطان الرّجيم.

وهنا ملاحظة نبدأ بها لبيان موضوع هذه الأسماء العظيمة: الربّ والملك والإله.

- نقول أوّلا: إنّ فاتحة القرآن وهي سورة الفاتحة ذكر الله فيها ألوهيته وربوبيته وملكه، فقال -عزّ وجلّ-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ذكر ألوهيته

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ذكر ربوبيته، إلى أن نصل إلى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي الملك.

- إلى أن نأتي إلى آخر سورة في القرآن فنجد: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ﴾

فهذه ثلاثة أوصاف لربنا تبارك وتعالى ذكرها -عزّ وجلّ- مجموعة في موضع واحد في أوّل القرآن، ثم ذكرها مجموعة أيضًا في موضع واحد في آخر القرآن. معنى ذلك أنّ هذه الأسماء لابد أن نجتهد في معرفتها لأن ربّنا العليم الخبير لم يجمع بينهم في أوّل القرآن ثم في آخر القرآن إلّا وهو العليم، يعلم شدة حاجتنا إلى معرفتها، وأنّها طريقنا لربّ العالمين وطريقنا للطمأنينة في هذه الحياة والسّير على ما يحبّ الله.

وهذه الأسماء الثّلاثة كما أنّها وردت في أوّل القرآن وفي آخر القرآن كذلك أتت في مواطن أخرى مجموعة، مثلًا في آخر سورة المؤمنين في سياق عظيم رهيب يصف الخاتمة للفريقين، الصّراع الّذي حصل طوال الحياة بين فريق الإيمان وفريق الكفر والنّفاق، فريق الحقّ وفريق الباطل، يختتم هذا السّياق وتختتم هذه السّورة الكريمة العظيمة سورة المؤمنون الّتي نصت على فلاح أهل الإيمان وعلى خسارة أهل الكفر، يقول الله -عزّ وجل-:

- ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[١] فاجتمعت صفة الملك ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أتت الألوهية ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أتت الرّبوبية ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

---

(١) المؤمنون: ١١٦.

- ومثل ذلك في سورة الزّمر في مطلعها: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

فهذه الأسماء الثّلاثة والله أعلم أنها مدار التّوحيد، في هذه الأسماء الثّلاثة يجتمع معنى التّوحيد، في هذه الأسماء الثّلاثة يصبح الإنسان في غاية من الطّمأنينة أنّ شأنه ليس إلّا في يد الرّحمن، لا أحد غير الله أبدًا له تصرف في هذا الكون بل هو وحده الربّ والملك والإله. وإن شاء الله يتبيّن هذا أكثر وأكثر ونحن نتدارس هذه السّورة العظيمة.

لاحظ أنك تأتي وتلتجئ إلى ربّ العالمين بهذه الكلمة:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾

ونحن هنا نجد أنّ كلمة النّاس قد تكررت ثلاث مرات كما هو واضح، وهذا التّكرار إنما هو لبيان شدة الالتصاق بين معاني أسماء الله -عزّ وجلّ- وبين هذا الإنسان، ولاحظ أنّ هذا الأمر هو الّذي سيبيّن لنا المناسبة بين المستعاذ به وبين المستعاذ منه، فنجد أنّ الله أضاف النّاس إليه: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ في الكلمة الأوّلى أضافها إلى ربوبيته.

وهذه الرّبوبية ما معناها؟ الرّبوبية تعود طبعًا إلى معنى التّربية، (الربّ) هو: المربي الخالق، الرّازق، النّاصر، الهادي، فهو الّذي خلقهم وربّاهم ودبّرهم وأصلحهم، ربّنا هو الّذي يحفظنا مما يفسدنا، ربّنا هو الّذي يسمع نداءنا، ربّنا هو الّذي يعاملنا بحلمه ورحمته؛ لذلك اسم الرّبّ يتضمن قدرته التّامة، يتضمن رحمته الواسعة، يتضمن علمه بتفاصيل أحوال هؤلاء النّاس، يتضمن إجابة دعوتهم، يتضمن كشف كربتهم. الآن عندما أقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ المفروض أن أستحضر هذه المعاني في ذهني لتحصل في قلبي الطّمأنينة أنّ ربّي ربّ

النّاس جميعًا، هو ربنا الّذي خلقنا وما أراد إلّا مصلحتنا، ربّنا الّذي يربينا ويدبّرنا ويصلحنا، ربّنا الّذي يحفظنا مما يفسدنا، ربّنا ربّي وربّ النّاس جميعًا له القدرة التّامة، له الرّحمة الواسعة، له العلم بكلّ شيء، ربّنا هو الّذي يسمعنا ويرى مكاننا ويعلم سرنا ونجوانا، فهو يجيب الدّعوات ويكشف الكربات -سبحانه وتعالى- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ تظهر معاني الربوبية من الخلق، الرّزق، الهداية، التّدبير، التّربية، الإصلاح الذي يقتضي القدرة، الرّحمة، العلم بأحوال الخلق. كلّما قلت: (يا ربّ) تستحضر هذه المعاني، وكلّما قلت: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ تستحضر أنّه ربّك وربّ جميع المخلوقين خلقهم وأوجدهم ورزقهم وهداهم وأصلحهم، يسمعهم ويراهم ويجب دعواتهم ويكشف كرباتهم، فيسمع تعوّذك -سبحانه وتعالى- ويجيب التجاءك إليه الصّادق، خصوصًا من الخطر العظيم خصوصًا من الشّيطان الرّجيم.

فإذا استحضرنا في قلبنا أنّه ربّنا الّذي يصلح ما في قلوبنا من وسوسة الشّيطان فأبشروا بالطّمأنينة التّامة؛ لأنّ الشّيطان هو الّذي يخوفنا: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[1] لسنا له بأوّلياء نعوذ بالله ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾[2] ومن أسباب ولاية الله للعبد أن يستشعر هذه المعاني، وإذا كان العبد لله وليّا والله قبله اتّخذه وليّا -وهو الغنيّ عن الخلق الرّحيم بهم- سيجد الإنسان من برد اليقين ما يغيظ الشّيطان الرّجيم، نسألك يا رحمن يا رحيم أن ترزقنا برد اليقين، اللّهمّ حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، سنرى كم يفسر لنا هذا

(١) آل عمران: ١٧٥.

(٢) الأعراف: ١٩٦.

الدّعاء وساوس الشّيطان، فالشّيطان ماذا يفعل؟ يتدرج، ولذلك نحن نقول: يا رب حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، فهو يتدرج بالعصيان ثم الفسوق ثم الكفر، وهذا خطر عظيم. وإن شاء الله نوّفق في اللّقاءات القادمة ونحن نتكلم عن وساوس الشّيطان أن نبيّن هذا الخطر.

لكن المهم أن نستحضر سويًا أنّ ربّ العالمين في هذه الأذكار الّتي أمرنا بها أراد أن نتذكّر هذه الحقائق عنه، أراد منا كلّ مرة نقول فيها الأذكار أن نتذكر هذه الحقائق أنّه ربّ النّاس، ربّنا ورب كلّ شيء، فإذا هربت إليه، إذا التّجأت إليه، إذا انكسرت بين يديه، وأنت تعرف ما معنى ربّ؛ سيكون هذا هو الطّريق لك للغاية الّتي تنشدها وهي أن تكون في الحياة مطمئنًا وعند قيام الأشهاد من الآمنين. إذًا

- أضاف الله -عزّ وجلّ-: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أضاف في الكلمة الأوّلى إلى ربوبيته النّاس.

- وأضاف النّاس في الكلمة الثّانية إلى ملكه، فهو -سبحانه وتعالى- الملك، فهم له -سبحانه وتعالى- العبيد، وهو -سبحانه وتعالى- ملكهم الحقّ، عندما يكون هو ملكهم الحقّ الّذي يملك الأمر، فإلى من نفزع في الشّدائد؟! أليس إلى الملك الّذي بيده الأمر؟ ألّا ينتظر النّاس في شؤون دنياهم إلى السّلطان من أجل أن يحل المشاكل الكبرى؟ فنحن جميعًا في ملكه -عزّ وجلّ-، وهو ملكنا الحقّ الّذي إليه وحده مفزعنا في الشّدائد والنّوائب، فلا صلاح لنا ولا قيام إلّا به -عزّ وجلّ-.

ولذا إذا تصور الإنسان هذا المعنى فهم كلّ الأسئلة الّتي في القرآن: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[1] اسأل نفسك هذه الأسئلة، صحيح أن هذه الأسئلة وجهت لأهل الكفر للمشركين الّذين فطرهم تثبت وجود الرّبّ ولكن المؤمنين دائمًا في حالة تجدد في هذا المعنى، أنّهم أوّل ما تأتيهم المخاوف يفكرون ويسألون أنفسهم هذه الأسئلة: من يملك صلاح شأننا؟ من صاحب الشّدة؟ من يخرجنا من هذا البلاء؟ من يملك؟ يسألون أنفسهم وهم صادقون مع أنفسهم، الصّدق الّذي يجعلهم يجيبون أنه لا أحد إلّا ربّ العالمين. إذًا لا أحد يستحق أن أنكسر عند بابه ولا أن أذل عنده ولا أن أطلب منه، فأمري حقًّا لا يملكه إلا ربّ العالمين.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾

هو الملك الّذي يملك كلّ شيء، وهو -عزّ وجلّ- ربّ كلّ شيء فهو الرّبّ الّذي يدبّر ملكه الّذي لا يشاركه أحد فيه فتأتي بألطافه العطايا، وتأتي من نعمائه الأسباب تطرق بابك تأخذها ألطف ما يكون ويأتيك الخير ألطف ما يكون، ولا تغتر بهذه الأسباب وإنما اعلم علم اليقين أنّ هذه الأسباب جعلها ربّ العالمين في الدّنيا ابتلاءً واختبارًا وتعليمًا، ينجح فيها النّاجحون، ويخسر فيها الخاسرون، يفوز فيها الفائزون، أسأل الله أن يجعلنا جميعًا وذرياتنا من الفائزين؛ والّذي يقول: علينا أن نأخذ بالأسباب نقول له: اطلب ربّ الأسباب وملك الأسباب ومالكها، وخذ بأعظم الأسباب: اطرق باب مالك الأسباب، اطمئن لربّ الأسباب، الّذي يقول: (الأسباب) نقول له: ما دمت تؤمن بالأسباب فخذ أسبابًا إلى رضاه، خذ أسبابًا إلى جنّات النّعيم، خذ أسبابًا لترتفع في عليين، لهذا

---

(١) يونس: ٣١.

جعل الله الأسباب في الأرض ليختبر الخلق: هل هم يؤمنون بالغيب وأنّ الأسباب يدبّرها ربّ الأسباب ربّ النّاس ملك النّاس؟! ربّ النّاس وملك النّاس يأتي بالنّاس أسبابًا توصلك إلى مرادك، فلا يخيفك الشّيطان، ولا يدخل في قلبك قلق، اطلب دائمًا وفكر دائمًا في مكانك عند الرّحمن، عند ربّ النّاس وملك النّاس، واسأل ربّ النّاس وملك النّاس ما أردت من شؤون واعلم أنّ الدّنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فليكن سؤالك أي سؤال يتصل بالدّنيا اجعله سؤالًا ينفعك في الدّنيا وفي الآخرة، ولا تخف من الشّيطان ولا من وساوسه.

عندما نقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ﴾ يجب أن يكون القلب مليئًا بمعنى ربوبيته ومطمئنًا لذلك؛ لأنه ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ يجب أن يكون القلب مطمئنًا اطمئنانًا تامًا للملك الّذي لا يستطيع أحد أن يتصرف في ملكه أبدًا ولا بشيء؛ ولذا الّذي يشعر بربّ النّاس وملك النّاس لابد أن يشعر بإله النّاس

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾

إلهم الحقّ، مادام هو ربّ النّاس وملك النّاس فلا يمكن للقلب أن يحبّ ويعظّم حبًا مطلقًا وتعظيمًا مطلقًا إلا هو، لا يمكن أن يحسن الظنّ إحسانًا مطلقًا، لا يمكن أن يقول على تدبير ربّ العالمين إلّا أنّه خير، لماذا؟ لأنّ الربّ الّذي له صفات الرّبوبية من الرّحمة والقدرة ومن العلم ومن الحكمة لا يأتي منه إلّا كلّ خير.

لذا القلب لن يؤله، لن يحب حبًّا عظيمًا مطلقًا وتكون فيه الثّقة مطلقة ويكون حسن الظنّ فيه مطلق لن يحبّ هذا الحبّ العظيم إلّا لربّ العالمين، إلّا ربّ النّاس ملك النّاس، مهما أعطى النّاس من حبّ

ومهما أعطى النّاس من ثقة، فحبّ ربّ النّاس فوق حبّ كلّ النّاس، فما من محسن من النّاس إلّا وربّ النّاس قد سبق إحسانه.

والألوهية فيها محبة مطلقة وتعظيم مطلق، فتعظيم ربّ النّاس فوق تعظيم كلّ النّاس، فما من ملك يملكه الخلق إلّا وملك النّاس قد سبق ملكه، فهو الّذي أحسن إلى الخلق وشرح صدورهم للإحسان، وهو الملك الّذي ملّك الخلق وجعل في قلوبهم الرّغبة في العطاء، والرّغبة في الامتنان.

فلمّا كان وحده ربّ كلّ شيء وربّ كلّ نعمة وربّ كلّ عطيه، وهو المالك لكلّ شيء حتّى قلوبنا الّتي بين جنبينا، فهو إله كلّ شيء، فإن الإله الحقّ لا يشاركه أحد، كما لا يشاركه أحد في ربوبيته ولا في ملكه فكذلك هو وحده محبوبنا الّذي نحبّه حبًا مطلقًا، وهو وحده العظيم الّذي نعظمه تعظيمًا مطلقًا، ولا يشاركه أحد في هذا، النّاس كلّ النّاس لهم من الحبّ على حسب حالهم معنا قربًا أو بعدًا، قبولًا أو ردًا، النّاس كلّ النّاس لهم أجزاء من الملك على حسب ما قسم ربّ العالمين، لكن ليس لأحد في قلبنا شيئًا مطلقًا من المحبة والإقبال وحسن الظّن واعتقاد أنّه يصرّف الأمور ليس لأحد إلّا لله، فالحمد لله.

هو ربّنا ومليكنا لا مفزع لنا في الشّدائد لسواه، ولا ملجأ لنا إلّا إليه، ولا معبود لنا غيره، فنحن نعلم أننا مطمئنون إليه، لا ندعو غيره ولا نخاف من غيره ولا نرجو غيره ولا نحبّ غيره حبًا مطلقًا تامًا، ولا نتوكل على غيره؛ لأنّ كلّ أحد غير الله كلّ النّاس، كلّ من ترجوه وتخافه وتدعوه، حتّى لو كان ربّاك وقام على أمورك، فالّذي شرح صدره لهذا

هو ربّ العالمين، فلا ربّ لنا سواه ولا ملك لنا غيره، فهو ملك النّاس حقًّا وكلّهم عبيده ومماليكه، فمن المؤكد أنّه وحده إلهنا الّذي لا نستغني عنه طرفة عين، بل حاجتنا إليه أعظم من حاجتنا إلى أي شيء. حتّى أنّ حاجتنا إليه أعظم من حاجتنا إلى روحنا وحياتنا، فهو الإله الحقّ إله النّاس الّذي لا إله لهم سواه.

فهذا يجعلنا نتأكد أنّه يجب علينا أن لا نستعيذ بغيره ولا نستنصر بسواه، وهنا يأتي الكلام عن أعدى الأعداء، لما جائت الاستعاذة من أعدى الأعداء ومن أكثر الأعداء تجرؤًا علينا، كان يناسبها أن نذكّر أنفسنا بربّنا ربّ النّاس، بملك النّاس، بإله النّاس.

ولاحظوا مرة أخرى أنّ الله -عزّ وجلّ- كرر اسم النّاس ولم يضع بدلًا عنه الضّمير، في كلامنا ممكن نقول: (ربّ النّاس وملكهم وإلههم) ولكن الله -عزّ وجلّ- أعاد ذكر النّاس ثلاث مرات ولم يعطف حتّى بالواو، يعني لم يقل: (ربّ النّاس وملك النّاس) لا وإنما ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ كلّ هذا ليدلّ على أنّ كلّ اسم من هذه الأسماء: (ربّ وملك وإله). النّاس يحتاجونه حاجة عظيمة.

ولاحظوا التّرتيب قدم الرّبوبية لأنّها عامة شاملة، ومنها يأتي الملك، ولكن أخرت الألوهية لأنّها خاصّة؛ لأنّه -سبحانه وتعالى- هو إله من عبده ووحّده ولكن الّذي يتخذ إلهًا دونه هذا لم يعبد الله ولم يوحده فليس بإلهه.

فنحن ونحن نقرأ هذه السّورة نؤكد عقيدتنا، نؤكد أننا مؤمنون أنّك ربّنا وربّ جميع الخلق، وأنّك الملك الّذي يتصرّف في ملكه، وأمره مطاع

إذا أمر، وملكنا إنما هو من ملكك لذلك نحن نؤلهك ونعبدك يا ربّ العالمين.

إذًا هو الربّ الّذي ربّاك، والملك الّذي يتصرف وأمره يطاع، نحن سمعنا أوامر ربّنا فأطعنا فكنا مؤلهين لله. فالله خلق خلقه بالربوبية، وقهرهم بالملك، وتعبدهم بالألوهية. سبحان الله كيف أننا عندما نقول هذه الثّلاث كلمات فإننا نعترف بالدين كلّه، فاشتملت هذه الإضافات الثّلاث على جميع قواعد الإيمان وتضمنت جميع أسماء الله.

والعائذ الآن بالله يقول: أنا من النّاس يا ربّ العالمين الّذي أنت ربّهم، أنا من النّاس الّذي أنت تملكهم وتدبّرهم، أنا من النّاس الذّين يؤلهونك وأعبدك فأرجو رحمتك ورأفتك بأن تعيذني من شر هذا العدو الّذي لا أملك دفع صولته عليّ.

بهذا نؤكد أنّ النّفس المطمئنة ستقول بلسانها وهي معتقدة بجنانها هذه الكلمات العظيمة الّتي تجعلها في سلك العبودية لربّ العالمين، ونحن باعترافنا هذا نتقرب إلى ربّ العالمين لأجل أن يعاملنا برأفته ورحمته فينجينا من تسلط الشّيطان، ينجينا من أن يتملكنا والعياذ بالله الشّيطان، ونحقّق بهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1] سبحان ربّنا العظيم كيف علمنا وفهمنا، كيف يوجد في كتابه من الأسرار الشّيء العظيم، انظر: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ كلّ هذا يرقينا في علاقتنا برب العالمين، ويجعلنا مؤمنين به -عزّ وجلّ- وبكماله معترفين بذلك في كلّ صباح ومساء بعد كلّ صلاة نقول: أنت الربّ القادر الخالق البارئ المصور الحيّ القيّوم

(١) فاطر: ٤٢.

العليم السّميع البصير. كل معاني هذه الأسماء مجموعة في كلمة: (ربّ) أنت الربّ المنعم المحسن المعطي المانع النّافع الضّار، أنت الّذي تهدي وتضلّ، أنت الّذي تسعد وتشقي، أنت الّذي تعزّ وتذلّ...إلى غير ذلك من معاني الربوبية نقولها في كلمة واحدة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ الّذي هذه صفاته القادر الخالق البارئ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ الآمر النّاهي، الّذي يصرّف قلوب عباده كما يحب، كيف يشاء، كما يشاء ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ العزيز الجبار ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ المتكبر ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ الجليل المتعال.

فهذا كلّه مما تتصوره النّفس من معاني وراء ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ الّذي يصرفهم، الّذي يقلبهم، الّذي يعزّهم، الّذي يذلهم، الّذي إن والوه تولّهم.

إلى أن نصل إلى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ الّذي حمدناه في أوّل الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: صفات الكمال والجلال كلّها لله، سبحان الله كم في هذه المقدمة من أسرار عظيمة! وأسرار كلام الله أسرار أعظم مما تدركها عقول البشر، وإنما كما يقول أهل العلم: "غاية أوّلي العلم الاستدلال بما يظهر منها على ما ورائها".

فالحمد لله ربّ العالمين اللّهمّ علمنا وفهمنا وطمئن نفوسنا بذكرك وشكرك يا ربّ العالمين.

نكون بهذا انتهينا من نصيبنا اليوم، ونكمل الكلام في اللقاء القادم عن المستعاذ منه عدونا جميعًا نسأل الله أن يحفظنا من شره، اللّهمّ حبب إلينا الإيمان وإلى ذرياتنا وإلى شباب المسلمين وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، اللّهمّ آمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الرّابع عشر

السّبت: ٥ جمادى الآخرة ١٤٤٣هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

نكمل ما بدأناه في الكلام حول هذه الأذكار العظيمة الّتي رزقناها من فضله -عزّ وجلّ- لطمأنينة قلوبنا، وكيف نتدارسها ونتعلمها حتّى تحقّق المراد، فالمراد المراد حقًّا هو أن تطمئن القلوب بذكر الله. فعلينا أن نفهم هذه الأذكار ونعيد معناها على أنفسنا مرات ومرات؛ لأنها لا تنفع النّفع الحقيقي إلّا إذا حصل التّكرار والتّذكير بمعناها من أجل أن تستقر في الفؤاد وتنفع وتدفع المعاني الباطلة أو النّسيان الّذي يمكن أن يأتي للإنسان نتيجة لعدم تصوره لمعاني هذه الأذكار، وأهم شيء في هذه الأذكار أننا في قراءتها وفي تذكّرها نذكر الله العظيم، نذكر الله الكريم، نذكر الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا هو سبب الطّمأنينة إذا فهمنا.

وقد وقفنا هنا في هذا الموضوع المهم على سورة النّاس بعد وقوفنا على سورة الفلق، وذكرنا سويًا في سورة الفلق أننا بعد معرفتنا بهذا الاسم وبهذا الفعل خاصّة علينا أن نذكر ربّنا مطمئنين، لما كنا نقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ الّذي فلق الإصباح، فالق الحب والنوى، وكلما رأينا شيء مفلوق، وكلما رأينا صبح يظهر وينفلق على اللّيل، كلما

اطمأننا لربّ العالمين وزدنا يقينًا بأنّ فالق الإصباح وفالق الحب والنوى هو الّذي يذهب عنا الهموم.

بمثل هذا المعنى نفكر في سورة النّاس؛ لما تدارسنا سورة النّاس بدا لنا الاستغراب الواجب أن نستغربه وهو أن ثلاثة من الأسماء العظيمة والصفات لله -عزّ وجلّ- ذكرت في هذه السّورة.

في مقابل أنّ سورة الفلق ذكر الله صفة واحدة له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ثمّ كما تبيّن تعددت الأمور الّتي أتينا هاربين فارين بها إلى ربّ العالمين:

- أتينا فارين إلى ربّ العالمين من شر ما خلق عمومًا، كلّ الّذي خلق، حتّى من شر نفسي، وحتّى من شر الشّيطان وشركه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.
- ثم من وقت معين وهذا الوقت تكون فيه المخاوف: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾
- ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ وقلنا: السّاحرات وما ينفثن.
- ومن شر الحساد: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

هذا كان واضحًا وكل هذا كان باسم واحد من أسماء الله وهو (ربّ الفلق) هذه الصّفة. فكأنه يقال لنا: اطمئن فالّذي فلق الإصباح وهو فالق الحب والنّوى يفلق عنك هذا ويفرقه ويبعده عنك.

لما أتينا إلى سورة النّاس -وهذه السّورة الخاتمة للقرآن مثل الفاتحة كانت فاتحة للقرآن- وجدنا أننا نستعيذ ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وهذه صفة لله،

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ هذه صفة لله، ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ هذه صفة لله، من شر واحد! فعُلِم أنّ هنا خطر عظيم، وفهمنا أنّ التّعوّذ في سورة الفلق كان متعلق بأمور تحس، أمور مادية أي محسوسة، ولكن عندما نأتي في سورة النّاس نرى أنّ طلب الحماية إنما هو من

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾

ما هو الوسواس وأين هو وكيف يكون ومتى يكون؟!

نذكر في هذا النّقاش ما يتيسر لنا، وكنا قد ناقشنا فيما سبق (ربّ النّاس) و(ملك النّاس) و(إله النّاس). واليوم نناقش هذه القضية الخطيرة الّتي هي سبب انزعاج كبير عند الخلق كلّهم، بل هذه القضية الخطيرة عندما تفهمها تفهم لماذا ربّ وملك وإله.

ونقولها بجملة مختصرة: ما هي قضية الوسواس؟

هذه قضية الصّراع، الصّراع الّذي بدأ مع آدم -عليه السّلام- الصّراع الّذي أراد ربّ العالمين أن يبيّنه لآدم لما أسكنه الجنّة زمنًا، وأمره بأمر وحذره بتحذير، ثم وقع الوسواس من الشّيطان، ثم وقع الخطأ من آدم، ثم نزل آدم إلى الأرض ومعه هذه الخبرة المهمة، نزل إلى الدّار الّتي خلقها الله له وهي الأرض؛ اختبارًا وامتحانًا، ثم يعود إلى دار الخلود، يعود الإنسان المؤمن إلى دار الخلود، فإنّ الإنسان المؤمن خلوده في جنّات النّعيم، والّذي لم يؤمن ولم ينجح في الاختبار في نار الجحيم ونعوذ بالله ربّ النّاس وملك النّاس وإله النّاس من نار الجحيم.

الوسواس بدقة ما هو؟ الإنسان لا يستطيع بدقة تحديد معنى الوسواس، وإنما هو أمر يتسلط على الإنسان لا يعرف من أين أتاه إلّا أنّ الله -عزّ وجلّ- أخبرنا أنّه:

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾

وكما قال -عزّ وجلّ-: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] والقلوب الّتي في الصّدور أيضًا هي أمر معنوي، الله أعلم هل له علاقة بهذه اللّحمة الّتي تسمى (القلب) حسيًا، هل هو يكون في داخلها؟! هل هو يكون أمر خارج عنها؟! الله أعلم. ولكن المهم أن نعرف أنّ هذه القلوب المقصود بها محل الإيمان والكفر، الّتي تمرض أو تسلم، هذه هي القلوب الّتي في الصّدور، فالوسواس يقع في هذا القلب، أي قلب النّفس، فالنّفس كلّها غيب، قلبها وهيئتها كلّها غيب سبحان الله.

لو سألت الآن: **ما هي النّفس؟** من يستطيع أن يحدد ما هي النّفس؟ من يستطيع أن يحدد شكل النّفس؟ طبيعة النّفس؟ حجم النّفس؟ من يستطيع أن يفعل هذا؟ لا أحد يستطيع؛ لأنّه غيب مجهول، فالنّفس في الحقيقة مجهولة، وهي حقيقة الإنسان. النّاس يمكن أن يكون عندهم علم بالجسد المادي وحتّى علمهم ليس كاملًا في الجسد، أمّا عندما تأتي للنفس فإنّها حقًّا مجهولة، وعندما يموت الإنسان تخرج النّفس من البدن فيُسلبها الإنسان، لا يبقى إلّا جثة هامدة، هل الجثة الهامدة هي الإنسان؟ إن كانت هي الإنسان كنا حفظنا الجثة وأبقيناها معنا ولكن أنت تعرف أن النّاس يعجلون بدفن هذه الجثة، يعني الإنسان الّذي يغسلونه ويكفنونه ويدفنونه هذا جثة، أمّا الإنسان حين تأتي لحظة الموت ويموت تخرج نفسه ويذهب هذا الإنسان إلى عالم البرزخ.

---

(١) الحج: ٤٦.

إذًا نحن نتكلم عن نفس هي بنفسها غيب، فالعقل البشري مهما تقدم لا يستطيع أن يحيط بها علمًا. فإذًا يترتب على هذا أننا عندما نتكلم عن الوسواس نعرف أننا نتكلم عن أمر لا نستطيع أن نحيط به ولا بمكانه ولكننا نشعر به، النّفس تشعر به. الوسواس هذا الّذي يزيّن للنفس سيء الأعمال، ويزيّن لها الشّرور، هذا الوسواس الّذي يجعل الإنسان يتشتت وهو مقبل على الله، يخاف حتّى وهو يذكر الله، هذا الوسواس هو الّذي يأتي بالأمراض للنفس، بالأمراض الّتي تتصل بالإنسان سواء كانت في أمور دينه أو أمور دنياه، وكلمة "وسواس" كما تعلمون هي من الوسوسة وهو: الكلام الخفي، الكلام الّذي صوته منخفض، الّذي لا يكاد يسمع له صوتًا، الكلام الدّاخلي، الإنسان لا يسمع صوتًا في أذنه سبحان الله، عندما يتكلم الإنسان مع نفسه ويسمع هذه الخواطر الدّاخلية وتحصل مجادلة ومنازعة وصراع، نحن لا نسمع هذا بالأذن الجارحة -سبحان الله- إنما نسمعه بأذن النّفس.

إذًا هذه النّفس العجيبة الّتي هي آية من آيات الله لها أذنان تسمع بهما الكلام وهما غير الأذنين الجارحتين في الرّأس، وأيضًا لها لسان لأنّ النّفس تجيب على هذا الوسواس. فهذه هذه وسوسة الشّيطان ونحن لا نتكلم عن وسوسة الإنس وإنما نتكلم عن وسوسة الجنّ هنا، وعن الوسوسة الّتي تصدرها النّفس والّتي قد تكون ناتجًا لوسوسة الإنس، أكيد أننا نعلم وندرك أنّ هذا الوسواس لا يسمع بالأذن الجارحة ولا الصّراع والكلام فيه باللّسان الجارحي وإنما مباشرة إلى القلب؛ ولذلك يقول الله -عزّ وجلّ-: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾.

فهذه الوسوسة إمّا تكون من خواطر الجنّ من الشّياطين، الشّيطان القرين أو من غير القرين، كل إنسان له قرينه مسلط عليه والعياذ بالله، ويبدأ بالتّذليل له ويدخل عليه الشّك في دينه وحتّى في دنياه، حتّى في دنياه يشعره بالخوف الدّائم، حتّى يشعره أحيانًا أنّه ليس عنده قدرات، أو أنّه لا يستطيع أن ينجح، حتّى لو عنده اختبار مثلًا يشعره أنك لست حافظًا، وفي كافة شؤون الدّنيا، المهم الإزعاج! لا تبقى مطمئنًا ولا لله تطمئن، ولا بذكر الله تطمئن، ولا بدعاء الله تطمئن، ولا برزق الله تطمئن ولكن فقط يخيفك!

هنا نريد أن نبيّن أنّ هناك أمراض تصيب العقل الإنساني وهناك أمراض تصيب النّفس الإنسانية، أمراض نفسية وأمراض عقلية، كثير من الأمراض الّتي تشخص أنها نفسية تكون من آثار وسوسة الشّيطان، وهذا أمر مختلف عن الأمراض العقلية، فيحصل للإنسان ما يحصل من عدم شعوره بنعمة الله، دائمًا يشعر أنّه فاشل! هذا كلّه من الوسوسة، وإن كان في شأن الدّنيا ولكنه يريد في نهاية الأمر أنك لا تطمئن إلى الله، لا تعيش الحياة بصورة تؤدي فيها وظيفتك الّتي لأجلها خلقت وهي عبادة الله، لا يريد هذا فهذا يزعج الشّيطان، فماذا يفعل؟ يبقى يأتيك بالخواطر الّتي تشكك في كلّ شيء، سوء الظّن بالنّاس، الإحساس الدّائم أنّه هو إنسان غير مقبول، الخوف من المستقبل. ومن جهة أخرى تأتي هذه الوساوس أيضًا فتزيّن الفاحشة وتزيّن الحرام بشتى أنواعه، وحين يبدأ يخيفه على المستقبل أو يخيفه من الفقر يشعره أنّه ليس هناك حل إلّا الرّبا، ليس هناك حل إلّا الرّشوة وهكذا.

وهذه الوسوسة الشّيطانية ممكن أن يتعلّمها شيطان الجنّ من شياطين الإنس لأنّ الله -عزّ وجلّ- أخبر: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(١) يأتي الإنسان الآن يسمع كلمة من شياطين الإنس فماذا يفعل له شيطان الجنّ؟ يعيدها ويكررها ويعيدها ويكررها، حتّى يحزنه حزنًا عظيمًا، أو حتّى يقنعه إقناعًا عظيمًا بهذا الموضوع، أو يأتي أحد مثلًا من أقرانه أو من أنداده يقول كلمة مؤذية مزعجة تسبب له الهم فماذا يفعل الشّيطان؟ يحول هذه الكلمة إلى منظومة ويعيدها ويعيدها على أذنه حتّى تضيق نفسه بنفسه وتضيق بهذا المتكلم، وربما اعتدى عليه، وربما قتله وهكذا!

إذًا لابد أن نعلم أنّ وساوس الشّيطان من أكثر ما يحيط بالإنسان ومن أكثر ما يسمع الإنسان، ومن أكثر الأشياء الّتي يتأثر بها الإنسان، لا يسمعها بأذنه الجارحة ولا يتكلم بلسانه الجارحي، لا بل هذا في النّفس، أذن النّفس تسمع ولسان النّفس يخاطب، وكلما ظهرت قضية فالقرين أو غيره من شياطين الجنّ حاضر يسمع ويعيد ويكرر ويخيف، وكلّهم متخرجين من نفس المدرسة بحيث أنها نفس الطّريقة في التّخويف من الأرزاق، ونفس الطّريقة في التّخويف على صورة الإنسان، ونفس الطّريقة في التّخويف على المستقبل وهكذا حتّى يضيق الإنسان بنفسه ذرعًا، ويجد الإنسان نفسه أن فكرة واحدة تلح وتعاد وتلح وتعاد، كأنك تسمعها ألف مرة في أذنك، وتبقى تلك الأصوات الخافتة ويبدأ الكلام في المعاودة والشيطان يرهق الإنسان، يقول له مثلًا: لم تغلق باب البيت،

(١) الأنعام: ١١٢.

لم تغلق باب البيت، لم تغلق باب البيت! وهو أغلق باب البيت وأتى لينام فيزعجه من نومه حتى يقوم فيذهب يجد الباب مغلقًا فيرده نائمًا ثم يرجع ويعود ويرجع ويعود حتّى يفقده صوابه!

ولذلك هذا الكلام المتكرر الّذي يجري لابد أن نشعر بأننا نحتاج إلى الهروب منه، ولابد أن نشعر أن الشّيطان له قبيلة: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[1] فتصور جهد متكرر ولا يتعبون؛ ولذلك سبب:

السّبب الّذي بدأنا به وهو: أننا في الدّنيا هنا قضية الوسوسة قضية متصلة بوجودنا بآدم -عليه السّلام- أبونا، قضية متصلة بعداوة الشّيطان، قضية متصلة بالانتصار للحقّ، قضية متصلة بالنّجاة من النّار، ولذلك كانت هذه المسألة مهمة فقيل: اهربوا إلى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ فإنّ له شر عظيم، وهذا الشّر يزداد عندما تفهم أنّه هو وقبيله يهجمون عليك إذا استسلمت لهم ولم تستعذ بالله، وأنهم يستعملون أسلوب التّكرار، وأنهم يبحثون عن ضعفك، وكما في بعض الآثار أنّ "الشّيطان يتشمم القلب" يشمه فإذا رأى في الإنسان حبًا للشهرة أو حبًا للشهوة شهوة معينة أو يشم فيه ضعفًا في الشّعور بنعمة الله ويشم فيه عدم الثّقة بالله وعدم الثّقة بأنّ الله يعين فيأتيه من المحل الّذي هو قد اكتشف أنه ثغرة فيه ويعيد ويكرر عليه ويعيد ويكرر عليه لذا كانت الاستعاذة برب النّاس وملك النّاس وإله النّاس، موضوع ليس باليسير.

---

(١) الأعراف: ٢٧.

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ من شر هذا الوسواس الخناس، هذا الوسواس إذا ذكرت الله خنس، فالشّيطان يخنس، والوسواس أيضًا يخنس عندما يخنس الشّيطان، وهذا الأمر استعملوه مع الموسوسين من جهة الجنّ ومن جهة النّاس، فإنّ ذكر الله والاستعاذة به تقطع هذا الصّوت الّذي تسمعه، وسوسته الّتي تدور في الصّدر ووسوسة النّاس الّتي يقولها وهو يديرها في صدرك فعندما تذكر الله تعالى وتستعيذ به وتهرب إليه صادقًا في هروبك، ثابتًا في هذا الهروب، متجهًا إلى الله، لا ترجع وتعود إلى كلام الشّيطان، فحين تذكر الله تعالى تغيب وتقطع هذه الوسوسة ولا تسمع أصوات الشّر الّتي تؤذيك، الّتي تناديك وتشجعك على المعصية، أو الّتي تناديك وتحطمك. فالنّاس مشكلتهم الرّئيسة أنّهم لا يفرقون بين كون هذه الفكرة من الشّيطان أو هذه الفكرة من نفسك، أي أنها فكرة الإنسان أتى بها، أي شيء فيه شر، أي شيء فيه تحطيم، أي شيء فيه إحساس مؤذٍ يجعل الإنسان لا يتقدم إلى الله ولا يرجو الله ولا يثق في الله، كلّ هذا سيكون شر الشّيطان يثيره، شياطين الإنس يثيرونه عليه، حتّى لو سمع هذا من الإنسي فهو يلتقطها من الإنسي ويعيدها عليه، فماذا يكون دورنا في مثل هذا الموقف؟ يكون دورنا: الهرب إلى الله، والهرب من هذه الأصوات، ومنعها من أن تستمر، ومنع الاستجابة لها، وطلب العون من الله لكي تصمد أمامها، ولا تسمح للشيطان أن يجعلك في الأحزان. وهنا يأتينا التّفريق بين الشّر ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ وبين حديث النّفس اللّوامة الّتي تأخذ بك إلى الله.

كيف تفرق بين الاثنين؟ الشّيطان يأخذ ذنوبك وبدلًا من أن تسير بها إلى الله وتتوب وتستغفر، يبعدك عن الله.

إذًا النّفس اللّوامة ما الفرق بينها وبين وسوسة الشّيطان؟

- الشّيطان ممكن أن يعيد ويكرر عليك ذنوبك ويعيد ويكرر عليك إلى أن يشعرك بالقنوط من رحمة الله.
- ومقابل هذا النّفس اللوامة عندما تقع في خطأ تردك إلى طريق الله وتؤلمك وتؤذيك وتحزنك لكي تتوب إلى الله، لتهرب إلى الله، تفر من الله إليه.

بذلك نفرق بين الوسواس وبين النّفس اللّوامة الّتي تدفعنا إلى باب الله:

الوسواس ممكن يأخذ كلّ الأمور حتّى المتصلة بالدّين وبالاستقامة وبالتوبة كلها ويحولها عليك، الوسواس يجعلك دائمًا تشعر أنك لا تستحق رحمة الله، أن ذنوبك لن تغفر، الوسواس ممكن يوصلك أنك إنسان لست تقيًا ولن تكون تقيًا، الوسواس دائمًا يشعرك أنك لست أهلًا لأن تحفظ القرآن ولن تحفظ القرآن، أو الوسواس ممكن يقول لك أنت غير محبوب في مجتمعك، أنت غير مقبول، أو يقول لك أنت لست ناجحًا ولن تنجح أنت غبي، كلّ الّذي تتصوره ويحيط بك في الحياة فالشّيطان يريد أن يكدر لك الحياة. مثلًا نفترض يكون عندك أضياف ومحتسبة لوجه الله إطعامهم، نفترض أن هؤلاء قرابتك وأهلك محتسبة على الله إطعامهم، وهذا من أفضل ما يفعل الإنسان أن يجمع أحبته وأقرباءه ويتواصل معهم ويبذل في ذلك ماله ويوسع في ذلك بيته على ما يستطيع محتسبًا لوجه الله ذلك، ويحاول أن يجعل مثل هذه الجلسات سببًا للتذكير البسيط وحتّى ليس بشكل محاضرة وإنما

التّذكير والتّنبيه، وخصوصًا الشّباب والشّابات ويبقى الحوار والنقاش والملاطفة بيننا حتّى يأذن الله ويسيرون في الطّريق المستقيم.

الشّاهد أنك عندك هؤلاء الأضياف، وقد نويت أنّ هذا هو العشاء، وأنت تفكرين مباشرة يهجم عليك يقول لك: لن يكفي العشاء ولن يكفي أضيافك وستخرجين بسواد الوجه، فماذا تفعلين؟ تنفعلين ثم ترتبكين ثم تأتي من هنا ومن هنا ثم إذا وضعت الطّعام وجدته فائض ووصلت إلى حد التّبذير وحفاظًا على الطّعام تغلّفينه وتتصدقين به وتقولين لهم: خذوه معكم وتعطي جيرانك، الحمد لله تصرفت بطريقة جيدة ولكن انظري كيف يزعجك ويزعجك ويجعلك لا تستطيعين أن تفكري وتبقين تنظرين فيهم كم عددهم وكم سيكفيهم وترتبكين ويكدر عليك، ثم إذا وضعناه قال: أنت مسرفة ويا ويلك من ربّنا وأنت كذا وأنت كذا، فترهقي من جديد وتترجيهم خذوا معكم وندق على الجيران ونعطي، خير وبركة ليس هناك مشكلة وتصرفات سليمة لكن أريد أن أبيّن لكم أن طريقه دائمًا الإزعاج! فالّذي يستطيع أن يتصرف مع هذا الوسواس؛ جزاه الله خيرًا، ولا يعرف كيف يتصرف معه إلا من استعاذ وهذا من آثار الاستعاذة، ولكن افهم المقصود أنّه يشوش علينا شأن ديننا ودنيانا، لا يريحك أبدًا، طوال الوقت يدور في مدارك، أحيانًا تكونين سائرة في طريقك وما عليك ومتوجهة إلى ربّ العالمين فيأتي يقول لك: أنت لا تفعلين هذه الأفعال إلّا رياءً، لا تطعمينهم إلّا رياء، لا تأتين بأقاربك إلّا ليقولوا أنك تفعلين! إنا لله وإنا إليه راجعون، أعوذ بالله من الشّيطان، نعوذ بالله من الوسواس.

وأمّا الوسواس في الصّلاة فلا تسأل عنه إنا لله وإنا إليه راجعون. نسأل الله -عزّ وجلّ- بمنّه وكرمه ونحن في هذا المجلس الّذي نرجو أن يكون مجلسًا مباركًا تحيط به الملائكة على تباعد أبداننا وقرب قلوبنا، نسأله -سبحانه وتعالى- أن يرزقنا الخشوع في الصّلاة، وأن يهدي الشّباب وأن يردهم إليه سالمين غانمين، نسأل الله -عزّ وجلّ- بمنّه وكرمه وهو على كلّ شيء قدير أن يحفظ علينا إيماننا، وأن يحفظ أولادنا وبناتنا.

شبابنا هؤلاء الّذي تخطفهم الشّيطان نسأله -عزّ وجلّ- أن يردهم إلى طريقه، كل واحد وسوس له الشّيطان لن تجد رزقًا إلّا في باب الرّبا نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يرده إلى الطّريق، كل واحد وسوس له الشّيطان وأبعده عن الإيمان نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يرده إلى الطّريق، نسأل الله -عزّ وجلّ- جميعًا أن يردنا إلى صلاة خاشعة مقبولة، ويطرد عنا الشّياطين نعوذ بالله من الشّياطين، نعوذ بالله من الشّياطين. نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يزيدنا تقوى وإيمانًا ويقينًا، يا ربّ تقبل منا إنك أنت السّميع العليم.

على كل حال في هذا اللّقاء اتفقنا على أمر مهم وهو: أن الشّياطين تزعج بني آدم بالوسواس، وأنها تخنس، الشّيطان يخنس والفكرة الوسواسية تخنس أيضًا إذا ذكرنا الله من قلوبنا، وهنا نؤكد أننا لابد أن نكون حاضري القلب أنّ ربّ النّاس وملك النّاس وإله النّاس هو الّذي يحميهم من شر الوسواس؛ لذلك لتكن استعاذتنا بالله من الشّيطان الرّجيم قوية، ولتكن نفوسنا نفسها صحيحة، ولكن حين تكون النّفوس مريضة والشّيطان يأتي على هذه النّفس المريضة فيزيدها

مرضًا يجد الإنسان الّذي قلبه مريض أنّ هذه الوسوسة أتت من صالحه فيذهب معها، ولكن لا تقلقوا كلّما زاد الإنسان استشفاءً بالقرآن وتوكلًا على الرّحمن وحسن ظنّ به وسؤال له -عزّ وجلّ- كلّما أقبل القلب على الله، والله لا يخذل عباده أبدًا، اللّهمّ اجعلنا لك يا ربّ العالمين مخلصين صادقين مقبلين، واصرف عنا وساوس الشّياطين شياطين الجنّ وشياطين الإنس، اجعلنا بك مطمئنين وبك راغبين وراهبين يا ربّ العالمين يا ربّ.

إن شاء الله اللقاء القادم نتمم الكلام على هذه السّورة العظيمة ونزيد الكلام عن تكوين الفكرة في الذّهن:

- كيف تتكون الفكرة الوسواسية؟
- وكيف تدفعها القلوب النّقية سريعًا والقلوب المريضة تتشربها؟

اللّهمّ ارزقنا صحة البدن والقلب، اللّهمّ اشف مرضانا ومرضى المسلمين، اللّهمّ آمين.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الخامس عشر

السّبت: ١٢ جمادى الآخرة ١٤٤٣ هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا أن جمعنا حول هذا العلم العظيم، العلم عن أسمائه وصفاته وأفعاله -عزّ وجلّ- الّتي خلق الله الخلق لأجل أن يعرفوها ويتعلموها، وقام سوق الجنّة والنّار ليكون جزاءً لمن بذل جهده في الحياة فعرف الله فكان من الفائزين من أهل جنّات النّعيم، وتكون النّار لمن قصر في معرفته -عزّ وجلّ- ولم يبذل جهده في التّقرب إليه بأسمائه وصفاته بل لم يقض العمر في هذه الوظيفة العظيمة وظيفة معرفة ربّ العالمين، فهذه الوظيفة يجب أن نشغل أنفسنا بها فنتعرف على أسمائه وصفاته وأفعاله من كلّ طريق أرشدنا إليه. ففي كتاب الله -عزّ وجلّ- أخبار عظيمة عن الله وفي سنة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أخبار عظيمة عن الله، ويزيد هذا الأمر بيانًا في الأذكار الّتي أمرنا بها رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، ونجد أنّ هذه الأذكار فيها من أسماء الله -عزّ وجلّ- وصفاته ومن معاني هذه الأسماء الشّيء العظيم الّذي يجعلنا مهتمين جدًا بما ورد في هذه الأذكار من أخبار عن الله.

وقد كنا بدأنا بفضل الله في التّعلم عن الله من خلال أذكار الصّباح والمساء، نسأل الله أن يقبل منّا جميعًا هذا الطّلب للعلم ونسأله - سبحانه وتعالى- أن يوفقنا للعمل به.

تدارسنا آية الكرسيّ وعرفنا من خلالها عظمة ربّ العالمين ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، العليّ العظيم الّذي لا يؤده حفظ السّماوات والأرض.

ثم بدأنا بفضل الله نتدارس ما ورد في سورة الإخلاص والمعوّذتين من أسماء الله -عزّ وجلّ- وصفاته، وكيف أنّ هذه السّور الكريمة امتلأت بالخبر عن الله وملأت قلوب المؤمنين بحبّ الله وبالتّعلّق بالله وكيف عالجت هذه الأخبار قلوب أهل الإيمان وطمأنتهم، وكيف لا يطمئنون وهم يرددون في الصّباح وفي المساء وبعد كلّ صلاة يرددون قائلين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أذكرك يا نفسي أنّ لي واحد أحد تفرد بالكمال والجلال والعظمة، واحد أحد غنيّ غاية الغنى، كملت صفاته، له صفات السّؤدد، فهو الصّمد الّذي لا يحتاج إلى أحد وكلّ أحد يحتاج إليه، وكلّ أحد يلجأ إليه، وكلّ أحد ينكسر بين يديه طائعًا مختارًا أو كارهًا، فهو السّيد الّذي قد كمل في سؤدده، فتصوري هذه الطّمأنينة الّتي تكون عند العبد فكيف يقلق من شأن هو يعلم أنّه في يد سيده ومولاه، فإذا ألمّ به أمر طرق باب سيده ومولاه وانكسر بين يديه، وانطرح ذليلًا راغبًا راهبًا سائلًا مطمئنًا أنه اتجه الاتجاه الصّحيح ولجأ إلى الصّمد، الصّمد الّذي لا يشاركه أحد في كماله ولا في ملكه ولا في سلطانه ولا في تدبيره، فهو لم يلد ولم يولد وهو لم يكن له كفؤ أبدًا. سبحان ربّنا العظيم، سبحان ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة.

ومررنا أيضًا على سورة الفلق وتأمّلنا هذا الاسم العظيم كيف أضيف إلى صفة عظيمة من صفات الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ الّذي يفلق، معنى عجيب وكل مرة نكرره نزداد طمأنينة إلى ربّنا العظيم، لماذا ربّ الفلق خاصّة؟! نعم، يفلق هذا الإصباح، يفلق هذا الغم والهم كما فلق الصّبح من اللّيل، فكيف لا يكون عليه الاعتماد وكيف لا تكون به الطّمأنينة؟! هو الّذي يفلق عنا ليلنا، يفلق عنا همنا، فكل الهموم تفلق إذا ربّ العالمين أراد ذلك. نحن نقول: (أعوذ بفالق الصّبح المنجّي الخلق من الشّرور الّتي تكون في الليل) أعوذ به فأنا على يقين أنه قادر على أن ينجيني من كلّ شر كما نجّى كلّ أرض أهل اللّيل كلّهم من شر ما في اللّيل ففلق الصّبح، نصف الله -عزّ وجلّ- بالصّفة الّتي فيها تمهيد للإجابة، أنت تكونين على ثقة أنّ ربّنا ربّ الفلق الّذي فلق الصّبح من اللّيل وخاصّة اللّيل وما فيه من شرور، فإذا ربّنا نجّى الخلق كلّهم من شرور اللّيل وفلق عليهم الصّبح فهل لا ينجيني أنا؟! بل ينجينا من كلّ شر، سبحان ربّنا العظيم. وهكذا تكون طمأنينة العبد بذكر الله وبمعرفة الله.

حتّى وصلنا إلى هذه السّورة العظيمة الّتي نحن بصددها وهي سورة النّاس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ نحن نهرب من كلّ ما نخافه إليه، نطلب منه أن يعيذنا، وهنا نقول ونحن نستعيذ من صفاته ما يطمئننا، نخبر عن الله كما أخبر عن نفسه بأنّه: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ ذكر ربوبيته للناس وملكه إيّاهم وألوهيته لهم. وكما ذكر ابن القيم في هذا وقد مر معنا ولكن هذا

اللّقاء للتأكيد ولختم هذه السّور المباركة على أن نبدأ بعد ذلك إن شاء الله في أذكار الصّباح والمساء وتفاصيلها والأخبار عن الله الّتي وردت فيها.

هنا في سورة النّاس أتت الاستعاذة: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ وكلّها مطمئنة للإنسان.

- الإضافة الأولى: إضافة الرّبوبية المتضمنة لتدبيرهم، وتربيتهم، وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشّر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم، فهذا معنى ربوبيته -عزّ وجلّ- للناس. وهذا كما مر معنا يتضمن قدرته التّامة ورحمته الواسعة وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم، عندما يقول الإنسان: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي ربّي وربّ النّاس جميعًا الّذي ربّانا وأصلحنا ودفع عنا الشّر وحفظنا مما يفسدنا، الّذي هو على كلّ شيء قدير، رحمته وسعت كلّ شيء، وإحسانه عمّ كلّ أحد، الّذي له العلم التّام، وهذا كلّه يطمئن النّفس أننا استعذنا بمن يعيذنا حقًّا وأنّه لن يخيبنا، فكانت هذه الإضافة الأولى.

- أيضًا أتت الإضافة الثّانية إضافة الملك: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبّر لهم كما يشاء، نافذ القدرة فيهم، الّذي له السّلطان التّام عليهم، فهو مَلِكُهم الحقّ وهم ملكه حقًّا، هو ملكهم الحقّ الّذي إليه مفزعهم عند الشّدائد والنّوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجؤهم، فلا صلاح لهم ولا قيام إلّا به وبتدبيره، ليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا داهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم؛ لذلك لتطمئن النّفوس لأنها استعاذت بمن هو مالك لكلّ شيء، مالك لك أنت أيّها

الخائف ومالك لمن أنت تخاف منه، أتتصور أنّه لا يرد شر من تخاف منه؟! فكانت هذه الإضافة الثّانية. يقول الإنسان: أنا أستعيذ مما أخافه بربي الّذي رباني، الّذي آثار إحسانه عليّ ورحمته، الّذي يعلم كلّ شيء، أستعيذ بالملك الّذي كلّ شيء تحت ملكه وتصريفه وتدبيره.

- وأتت هذه الإضافة الثّالثة ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ إضافة الألوهية فهو معبودهم الحقّ الّذي لا معبود لهم سواه ولا معبود لهم غيره، فكما أنّه وحده ربهم ومليكهم ولم يشاركه في ربوبيته ولا ملكه أحد فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم. كما أنّه لا شريك معه في ربوبيته وملكه وكذلك لا شريك في ألوهيته. وهنا يقول الإنسان: أنا ألجأ لمن أحبه وأعظمه وأتقرب إليه، فأنا مؤمن أنّه لن يتركني، إذا كان هو وحده -سبحانه وتعالى- ربّنا ومليكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشّدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلّا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ندعو إلّا إيّاه ولا نخاف سواه، ولا نرجو ولا نتعلق إلّا بعطاه، لا نحبّ سواه ولا نتذلل لغيره ولا نخضع ولا نتوكل إلّا عليه. كلّ أحد غيره ليس ربًّا ولا ملكًا ولا إلهًا على الإطلاق، بل كلّهم عبيده ومماليكه، فكان الواجب أن تكون الطّمأنينة في نفوسنا حين نتذكّر عن الله هذه الصّفات.

وقد مر معنا أنّ هذه الأسماء والصّفات لله -عزّ وجلّ- تورث في القلب الطّمأنينة التّامة، وكان هناك سؤال: لماذا اجتمعت كلّها في هذه السّورة؟ فقيل: لأنّ الأمر الّذي نستعيذ به أمر عظيم، أمر لا يخلو منه وجدان، إنّه أمر الوسواس ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ وقد مر معنا شيء من الكلام عن الوسواس ونزيد اليوم عليه بإذن الله ما يساعدنا على إخراج أنفسنا من مشاكل الوساوس.

أوّل الأمر لا بد أن نعرف أنّ حال الإنسان أي إنسان لابد أن يكون عنده من حديث النّفس ما عنده، لا يكون أمرًا غريبًا أن يكون عنده حديث مع نفسه، وقد مر معنا أنّ النّفس لها قلب ولها أذن ولها لسان، وهذا الّذي نسمعه في داخلنا وهذا الكلام الّذي نحدث أنفسنا به، إلى هنا الأمر غاية في الوضوح. عرفنا أننا في داخلنا هذه النّفس وهذه النّفس الّتي تتحدث وتشعر وتسمع ويحصل منها كلام وجواب وردّ، هذه هي أخطر ما في داخلنا فالإنسان الآن عندما يجد نفسه تمرض ويجد نفسه تضطرب لابد من مراجعة هذه النّفس ومراجعة ما حصل لها؛ ولذلك عندما تسمعون قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: لما يحيي نفوسكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[1] شيء عظيم هذا! ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فالله مطّلع على مكنونات القلوب وهو -سبحانه وتعالى- يعلم ما توسوس به النّفوس، ويعلم كيف يتصرف الإنسان مع وساوسه إذا كان في حال صحة وإذا كان في حال مرض.

لنركز الآن أنّ الله يحول بين المرء وقلبه، فهو المطّلع على ما في القلب من وساوس، وإذا كان الإنسان يتعامل مع وساوسه بالطّريقة المرضية لله فقد أحسن إلى نفسه، وإذا كان لا يتعامل مع وساوسه بالطّريقة المرضية لله فيكون قد أساء لنفسه، وهذا فيه الحث على بذل الجهد للاستشفاء من الوساوس، لابد أن نبذل جهدنا في علاج قلوبنا ليحصل إخلاص القلب ولنحصل على قلب سليم لابد من معالجة أدواء قلوبنا وعلل القلوب، لابد أن نسأل الله أن يرزقنا قلبًا سليمًا.

---

(١) الأنفال: ٢٤.

نرى الآن مسألة الوساوس بشيء من التّفصيل:

هذه الوساوس الّتي تكون في داخلنا تبتدئ بفكرة بسيطة، إذا لم يلاحظها الإنسان وتطورت بعد ذلك ممكن أن تكون قاتلة للإنسان، ممكن تنهار النّفس الإنسانية بل ممكن أن يلجأ الإنسان إلى إيذاء نفسه، نفس الإنسان تقتل نفس الإنسان! وتؤدي هذه الوساوس أحيانًا إلى الهلاك وإلى الإضرار بأنواع غير متصورة بحيث أن يصل الإنسان إلى أن يتلذذ بتعذيب نفسه! لكن لنركز أنّ هذه البدايات دائمًا تكون بسيطة ثم حين لا ينتبه لها الإنسان تتحول إلى أشياء خطيرة، فالإنسان يبدأ يكون خال الوفاض من الأفكار إلّا أنّها تدخل عليه ولا يحترس منها، تدخل عليه من الشّيطان ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ محل الوسوسة في صدور النّاس، والشّيطان له دخول في جوف العبد ونفوذ إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدّم. وفي الحديث المعروف حديث صفية لما مر الصّحابيين وأسرعا «فَقالَ لهما رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: علَى رِسْلِكُمَا، قالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ! وكَبُرَ عليهما ذلكَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الإنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وإنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ في قُلُوبِكُما شيئًا»[١] أي أنّه يقذف، وهذا القذف يمكن أن يكون فيه فحشاء، فيه منكر، فيه معصية، فيه صغيرة، فيه كبيرة، وممكن أن يصل والعياذ بالله إلى ذات الله؛ ولذلك الصّحابة قالوا: «يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السّماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، فقال -صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ- الحمدُ للهِ الذي ردَّ كيدَه

(١) أخرجه البخاري: (٣١٠١).

إلى الوسوسةِ»[١] ولذلك نجد أنّ من وساوس الشّيطان ما يكون فقط إرادة منه من أجل أن تتشتت، أي النّسيان الّذي دائمًا نشعر به يشغل قلبنا بحديثه حتّى ينسينا ماذا نريد أن نفعل، كثير من النّاس يشتكون من الشّتات ويشتكون من النّسيان، أحد أهم أسباب النّسيان والشتات: الشّيطان، فيشغلنا بحديثه كما في سورة الكهف: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾[٢] نعم ﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ أي هو الّذي أنساه. له أذية.

نعود إلى بداية الكلام؛ أنّ القلب يكون فارغًا من الشّر والمعصية، هذه بداية الموضوع، أي أن الإنسان لا يبدأ مباشرة بممارسة الباطل وممارسة الشّر لا، يبدأ القلب فارغًا من الشّر والمعصية، فيوسوس إليه الشّيطان ويخطر الذّنب بباله، فالشّيطان يصور للإنسان ويمنيه ويشهيه فتصبح شهوة ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خياله حتّى تميل نفسه لهذا الشّيء فتصبح إرادة. نقول هذا الكلام بشيء من التّفصيل لأن فهمنا لهذا يجعلنا نهتم كثيرًا بالاستعاذة من مبدأ الخاطرة، فإذا جاءت هذه الخاطرة وهذا شيء طبيعي أن تأتي في النّفس خواطر ولكن متى يتحول الموضوع إلى مرض؟ إذا فسدت ضائقة القلب يتحول الموضوع إلى مرض، أي لو الإنسان أوّل ما خطر على باله المنكر، الباطل، ظنّ السّوء، الذّنب، خطر على باله أن يتكلم عن إنسان، فإذا كان القلب حيّ مباشرة حين تأتي هذه الخاطرة يقول: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، إذا فعل هذا الفعل لابد أن نتأكد أنّ الشّيطان سيندحر وأنّ هذه الفكرة ستذهب، ولكن حين تستحلي النّفس هذه

---

(١) صححه أحمد شاكر.

(٢) الكهف: ٦٣.

الأمور معنى ذلك أن النّفس مريضة، معناه أنّ النّفس تحبّ الشّهوات ولكن النّفس حين تكون مؤمنة وطاهرة والإنسان يبذل جهوده ويدعو: اللّهمّ طهر قلبي، اللّهمّ طهر قلبي، اللّهمّ طهر قلبي، يبذل جهوده بالدّعاء، يبذل جهوده بدفع الخواطر، سيكون في هذا قوة للإنسان وهو يستحي من ربّه الرّحمن حياءً يمنعه من أن يستمر في التّفكير في الذّنب.

مرة أخرى: النّفس المؤمنة الّتي ذوقها سليم حين يأتي الشّيطان بوسوسة فالنّفس المؤمنة تستقذر هذه الوسوسة، وتستعيذ بسرعة، مثل حين يكون الإنسان صحيحًا في البدن وذوقه صحيح، حين يعطى طعامًا طيبًّا يقبله وحين يعطى طعامًا سيئًا أوّل ما يذوقه الإنسان يتفله، لماذا يتفله؟ لأنّه يراه أنّه طعامًا سيئًا، هكذا النّفس الإنسانية إذا كان الإنسان يطهرها من القاذورات ويذكرها بالطّيبات ويتلو القرآن ويعرف حدود الله فهذا أوّل ما يأتيه فكرة سيئة قلبه لا يستطيع أن يستسيغها لأن ذوقه سليم، ولكن الإنسان حين يتعود على تناول الأشياء القذرة يفسد ذوقه ولا يقبل إلّا بالخبائث، هذا نفس الأمر عندما ينظر للأشياء المحرمة، عندما يسمع الكلام البذيء والسّيء، عندما لا يعتني بتطهير قلبه، عندما يأتيه الشّيطان بالفكرة ماذا يحصل؟ يقبل هذه الفكرة لأنه تعود على الشّيء السّيء. هكذا الإنسان إذا كان يتذوق الطّيبات من الطّاعات سيميت الوسوسة من أوّلها، وإذا كان الإنسان يتذوق ويتناول السّيئات فإنّه سيدخل في باب السّيئات من الخاطرة حتّى تصبح فكرة حتّى يحصل التّنفيذ، يستمر في الخيال السّيء إلى أن يحصل منه التّنفيذ.

لذا سورة النّاس تقطع على الشّيطان طريقه وتطهّر الإنسان إن قرأها كما ينبغي، إن قرأ هذه السّورة كما ينبغي تكون قراءة هذه السّورة تعبير عن شدة لجوء الإنسان لربّ النّاس وملك النّاس وإله النّاس من شر هذا الوسواس الّذي يفسد على النّاس حياتهم؛ لأنّ الشّيطان لازال يمثل لهم ويخيل لهم ويمنيهم ويشهيهم وينسيهم سوء العاقبة من وراء كلّ ذنب، فلا يرى الإنسان إلّا صورة المعصية وإلّا التذاذه بها وينسى ما وراء ذلك، فتتحول الأمور من مجرد إرادة إلى عزيمة، إلى عزيمة جازمة فيشتد الحرص عليها من القلب، ويبدأ الإنسان يتحرك لينفذ هذه العزيمة فيقويه الشّيطان، ويبعث له جنودًا يساعدونه، إذا فتر الإنسان عن هذه المعصية حرّكه الشّيطان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[١] هم استسلموا لها وصارت هي تحركهم، تقودهم إلى الذّنوب، وتفعل لهم الأفاعيل وتكيد لهم المكائد لأجل أن يقعوا في الذّنوب.

ولذلك فجرة بني آدم هم الذّين يسلمون أنفسهم للشياطين، فتلعب بهم ذات اليمين وذات الشّمال كما في الحديث القدسي: «وإنّي خَلَقْتُ عبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتتْهُمُ الشياطينُ فاجْتالَتْهُمْ عن دينِهِمْ»[٢] لنعلم أن أصل كلّ معصية وبلاء هي الوسوسة، وقد أخرج آدم -عليه السّلام- من الجنّة من أثر استجابته لوسواس الشّيطان، والشيطان له شرور عظيمة على الإنسان، فإذا لم يخف منه الإنسان تمكن الشّيطان، يعني الاستعاذة لا تأتي إلّا من إنسان خائف، كيف لا نخاف من الشّيطان وهو لص سارق؟! لص سارق يسرق أموال النّاس، كما

---

(١) مريم: ٨٣.

(٢) صححه الألباني.

ذكر ابن القيم: «أنّ كلّ طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسّرقة والخطف» وكذلك هو دخيل على النّاس، هو يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله فيأكل طعام الإنسان بغير إذنه ويبيت في بيته بغير أمره، فيدخل سارقًا ويخرج مغيرًا. وتصوروا هذا الكلام يذكره ابن القيم: «إن الشّيطان يدلّ على عورات أهل البيت، يأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الإنسان يقظة ومنامًا أنه فعل كذا وكذا من الذّنوب»[١] تصوروا كم حاجتنا لأن نستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ومن هذا الّذي نعرفه أنّ العبد يفعل الذّنب ولا أحد يطّلع عليه من الناس فيصبح والنّاس يتحدثون به وما ذاك إلّا كما بيّن ابن القيم أنّ الشّيطان زينه له وألقاه في قلبه ثم وسوس إلى النّاس أنّه يفعل هذا الفعل. والرّبّ السّتير -عزّ وجلّ- يستر علينا والشيطان يكيد لنا ويفضحنا.

إذًا لابد من أن نشعر بعداوته

- هذا الشّيطان الّذي إذا نام العبد عقد على رأسه عقدًا تمنعه من اليقظة كما في الحديث الصّحيح.
- هذا الشّيطان هو الّذي يقعد لابن آدم بطرق الخير كلّها، فما من طرق الخير إلّا والشيطان على هذا الطّريق يمنعه بجهده أن يسلكه.
- فإن خالفه وسلكه لا يتركه بل يسير معه من أجل أن يثبطه ومن أجل أن يعيقه ومن أجل أن يشوشه ومن أجل أن يأتيه بالمعارضات والقواطع.

(١) تفسير ابن القيم.

- إذا عمله وفرغ منه فيحاول أن يثيره ويفعل أمور من أجل أن يبطل العمل، مثلًا أن يسمّع به أو يثيره على مبطلات الأعمال.
- هذا الشّيطان هو الّذي أقسم بالله ليقعدن لبني آدم الصّراط المستقيم، وأقسم أنّه سيأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.
- هذا الشّيطان هو الّذي عمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتّى أخرج آدم من الجنّة.
- هذا الشّيطان هو الّذي تصدى لإبراهيم خليل الرّحمن حتّى رماه قومه بالمنجنيق في النّار ولكن الله رد كيده عليه وجعل النّار على إبراهيم بردًا وسلامًا.
- هذا الشيطان هو الذي تصدى للمسيح -عليه السّلام- حتّى أراد اليهود قتله وصلبه فرد الله كيده وهكذا.

الشّيطان له شرور على ابن آدم، يجرب على ابن آدم، يحاول إيقاعه في الشّرك والكفر وإذا لم يستطع أوقعه في البدعة وإذا لم يستطع جعله من أهل الكبائر، وإذا لم يستطع جعله من أهل الصّغائر وهكذا، إلى أن تجده يتسلط على الإنسان فيضيع وقت الإنسان. وأكثر طريقة للشيطان في تضييع وقت الإنسان ما نسميه اليوم بالوسواس القهري، الّذي فيه محاولة لتضييع جهد الإنسان وتفكيره في إعادة الوضوء وفي إعادة الصّلاة، كلّ هذا لأجل أن يشتت الإنسان ويذهب عنه قواه وتركيزه. ولاحظوا: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ والصّدر كما يقول ابن القيم: «والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات

إليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له. ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود»[1]

فالشّيطان يدخل إلى ساحة القلب وإلى بيته ويلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، ويشتت عقل الإنسان، ويشتت قواه، لا يستهان بمثل هذا العدو بل يستعاذ بالله من شره.

موضوع الوسواس موضوع كبير ومهم لابد من إفراده في المناقشات، لذلك نحن في هذه اللّقاءات نكتفي بهذا الكلام لأنّه ليس من صلب الكلام كلامنا عن تفاصيل الأذكار وإنما عن أسماء الله الواردة في هذه الأذكار.

عرفنا هنا أنّ الشّيطان عدونا وأنّ الشّيطان يبذل جهوده لتشتيت الإنسان ونحن نبذل جهودنا في اللّجوء إلى ربّ العالمين ولا يمكن أن نظن أننا نصدق في اللّجوء إلى الله والله لا يعيذنا، لا، نحن نؤمن أنّ ربّ النّاس ملك النّاس إله النّاس سيعيذنا من شر الوسواس الخناس، لنكرّر هذه السّور ونعيد على أنفسنا الاستعاذة بالله: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ حتّى يطفئ عنا ربّ العالمين آثار نار الوسواس الخطيرة الّتي تدخل إلى القلوب فتدمرها.

أسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن يشفينا ويشفي المسلمين جميعًا من وساوس الشّيطان الرّجيم، وأن يحمينا ويطهر قلوبنا ويحفظنا إنّه على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

---

(١) بدائع الفوائد.